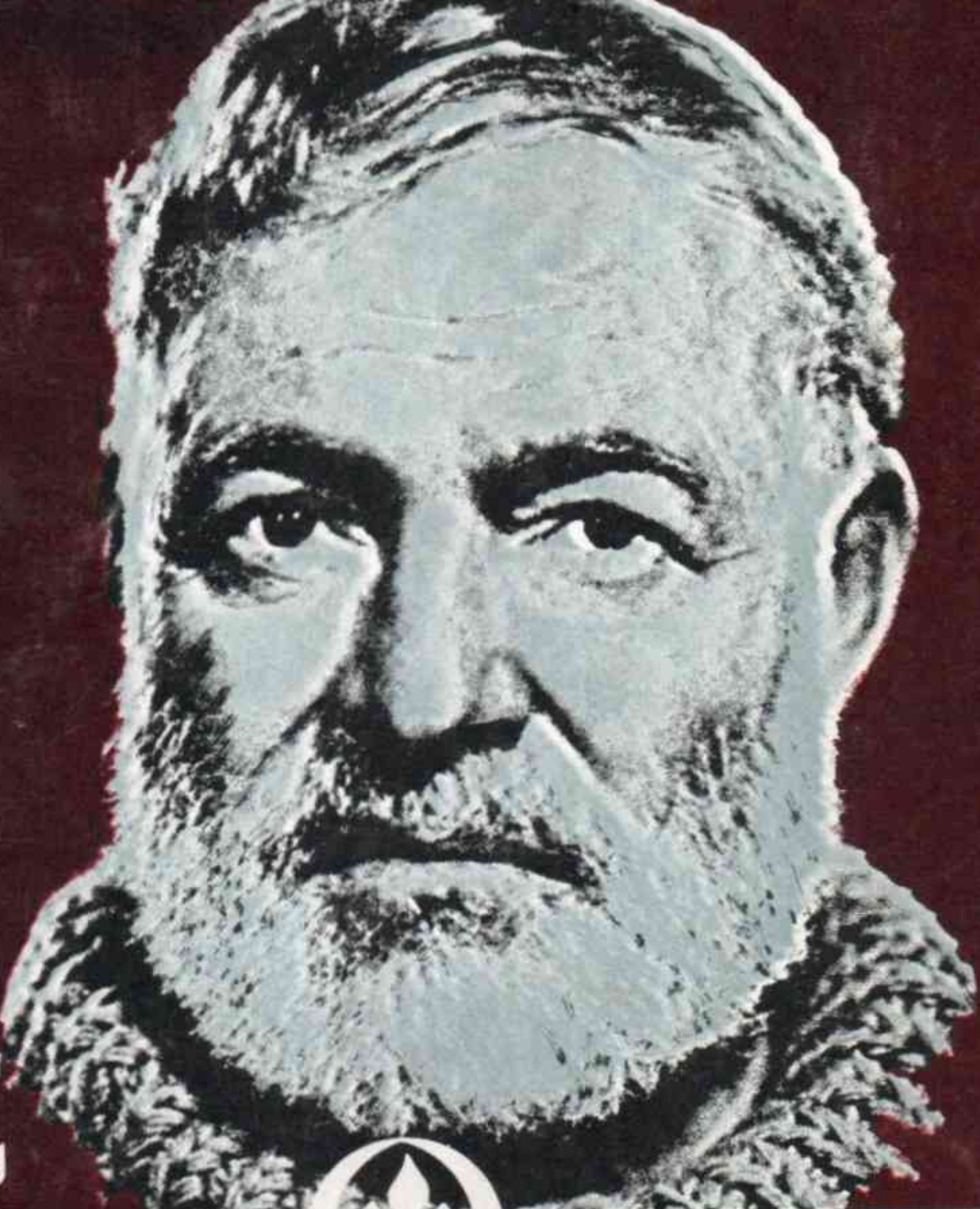
سلسلة المائة كتاب

بابا همنغواي

مذكرات شخصية

كريكوري هـ . همنغواي

ترجمة : حسين علوان حسين



مراجعة
واثق الدايني

دار الشؤون الثقافية العامة

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 20 /جمادى الأولى/ 1445 هـ
الموافق 22 / 11 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة



بغداد ١٩٨٩

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي -Sarmed Twitter: @sarmed74
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books



تصدر عن

دار الشؤون الثقافية العامة

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

الدكتور محسن جاسم الموسوي

حقوق الطبع محفوظة

تعنون كافة المراسلات

لرئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة

العنوان

اعظمية - ص.ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣٥

بغداد - العراق

العنوان البرقي - فاق - تلفون ٤٤٣٦٠٤٤

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

كَريكَوري هـ . همنغواي

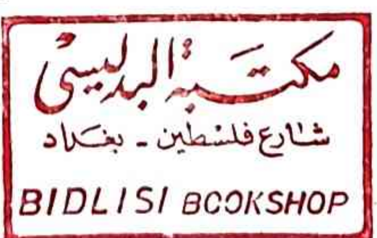
بابا همنغواي

مذكرات شخصية

مع مقدمة بقلم : نورمن ميلر

ترجمة وتعليق
حسين علوان حسين

مراجعة واثق الدايني



الطبعة الاولى لسنة ـ ١٩٨٩

گريگوري همنغواي Gregory Hemingway

بابا ، مذكرات شخصية Papa, Personal Memoiers

صدرت الطبعة الاولى للكتاب من دار « هوتن مفلن » في ولاية بوسطن عام ١٩٧٦ .
والطبعة المعتمدة في اعداد هذه الترجمة صادرة من دار « پوكِت بُك » ، نيويورك ، في مايس من عام ١٩٧٧ .

هذا الكتاب هديتي الى
تيد هاگر والسيد پدپار

يود المؤلف أن يعرب عن امتنانه لأعمال البحث والتحرير والمساعدة والتشجيع المقدمة اليه من قبل :

دَنِسْ برايان

هَلِنْ دارڤل

رولف فوينتس

ڤاليري همنغواي

ديادر ماگوار

ج . سايمن پراگر

شتان فايسبرگ

وللسيد « بل وذربي » ، بشكل خاص .

« أصغر الفتيان كان أشقر ، وذا بنية تشبه دمية صغيرة لسفينة حربية . كان نسخة جسدية مصغرة ومستعرضة من توماس هدسن . كانت بشرته تلتمع عند اسمرارها ، ووجهه الظريف يبدو شائخاً منذ الولادة . كان شيطاناً حقيقياً وذا تأثير شيطاني على اخوته الأكبر منه سناً ، كما امتلك جانباً داكناً في نفسه لم يستطع أحد ادراك كنهه أبداً ، باستثناء توماس هدسن ، غير أنهما لم يشغلا نفسيهما كثيراً بهذا الأمر مع وعيهما به وادراكهما لضرره ، في نفس الوقت الذي كان فيه الرجل يظهر احترامه وتفهمه له . كانا صديقين حميمين بالرغم من ان علاقة توماس هدسن به لم تكن اقوى من علاقته مع أولاده الآخرين . لقد كان هذا الصبي الأصغر ، أندرو ، رياضياً ماهراً منذ نعومة اظافره ، فقد أظهر براعة في ركوب الخيل في أول تجربة له معها ، اما الأولاد الآخرين فقد كانوا فخورين به مع كونهم غير مستعدين لسماع تخريفاته ، وما كان أحد من معارفه ليصدق انه يتمتع بمهارة رياضية مدهشة إلا مَنْ شاهده منهم وهو يركب الفرس ، وراقبه وهو يقفز بتواضع المحترفين البارد . لقد ولد هذا الفتى ليكون مشاكساً كثير الطيبة ، يحمل معه خبثه محولاً إياه الى مرح مضجر . لقد كان فتى شريراً وقد عرف الآخرون هذا ، وعرفه هو نفسه ؛ وكلما حاول ان يبدو طيباً ، ازداد خبثه تأصلاً في ذاته » .

إيرنست همنغواي

من : « جزر في التيار »

مقدمة

إن الذي يميز أي كتاب قراته عن همنغواي هو بقاء شخصيته خارج نطاق التركيز المتمعن ، فحتى كاتبة محنكة حادة الذهن مثل « ليليان روس » بدت غير قادرة على « الامساك » جيداً به في قطعتها الشهيرة « النيويوركي »[1] لقد كان ايرنست همنغواي حاضراً هناك في طيات كتابها ، غير ان صورته بدت دقيقة اكثر مما ينبغي ، كما لو كان الرجل جالساً في احدى لوحات الرسامين الواقعيين الجدد ، حيث يتفاخر الواحد منهم بعكسه للموضوع امامه كما لو كان مُصوراً تصويراً فوتوغرافياً بارداً وليس مبعوثاً بحس فني عميق راق .

وعلى العكس من ذلك هناك مؤلف « كارلوس بيكر » الرائع عن سيرة حياة همنغواي ، والذي زودنا بكمية هائلة من تفاصيل حياته اليومية التي تبدو غير مهضومة بتواضع الى حد ما . مع هذا فهو كتاب ثمين تتطلع الى ثراء تفصيلاته أية سيرة طموح ، ويقدم جهداً مطلوباً لكونه سفراً كتب ببصيرة ثاقبة مقصودة تماماً ، كما لو ان الكاتب قد شعر ، منذ البداية ، بأن مهمته الادبية لاتكمن في « عرض الرجل » قدر تعلقها بـ « تغطية » كل عام من حياته مثلما رتسم في ذاكرة اصدقائه .

هناك ايضاً كتاب « أ . إ . هوتشنر »[2] الذي يقدم صورة ممتعة لهمنغواي ، ولكنها محرفة الى حد ما . لقد استخدم هوتشنر عدسات ذات زوايا عريضة شوهت حتى منخري الرجل العظيم ، وبحزن نعلم ان هناك من الاسباب مايدعونا لاعتبار المادة المنشورة فيه قد أُجريت لها عملية « توليف » مضللة ، فقد ظهر مثلاً ان الحديث الفخم المسهب الذي يدلي به همنغواي لهوتشنر في احد فصول الكتاب لم يكن في الواقع الا نصاً منسوخاً من إحدى رسائل همنغواي . وبالطبع فقد كانت تلك هفوة أدبية من النوع الذي اعتاد الصحفيون المحترفون ارتكابه نظراً لأن مواهب مثل اولئك الكتاب تنمو في مدارس تريد من طلابها تقديم رواياتهم عجلى متسلسلة (يأتي النص المنقول من رسالة أبطأ من حديث اعتيادي للرجل) ، الا ان مثل هذه الاساليب تنبت التشويهات بعجالتها .

---

(١) كانت ليليان روس مندوبة لمجلة « نيويوركر » ، اسندت اليها مهمة اجراء تحقيقات صحفية مع همنغواي .

(٢) اسمه « بابا همنغواي » وقد ترجمه الى العربية ماهر البطوطي وصدر من دار الآداب ببيروت . اما هوتشنر فقد كان هو الآخر مندوباً لمجلة « كوزموبوليتان » كلفه رئيس تحريرها بالاتصال بهمنغواي واقناعه بالكتابة للمجلة .

أما الآن فأمامنا مؤلّف سطره ابن عن ابيه . انه كتاب صاغه ابن لايمتلك في واقع الحال خبرة الكتاب المحترفين ـ مثلما يعترف هو بذلك ـ مع انه قادر على الكتابة بإمتاع شديد (لعل اغلب القراء المسكين به سيستطيعون انهاءه في جلسة واحدة فحسب) .

والسبب في ذلك يعود الى حقيقة كون هذا الكتاب لايشبه غيره من الكتب التي سطرها الأبناء عن آبائهم العظام ، فلن نواجه هنا أي شعور بالصَّغار من الابن ازاء ابيه . فالابن يظهر لنا نفسه وهو يروي الاكاذيب على مسامع ابيه فيرد عليه ابوه بأكاذيب قذرة اخرىٰ مع ان كلّا منهما يكن الحب للآخر ، كل بطريقته الخاصة ، وبصميمية لم تلغِ الكره الطفيف ايضاً . واذا كانت لدينا هنا صورة مكتوبة بحب جم فانها تضطرم ايضاً بكل حلاوة وعذاب هذا الحب ، ان ما يميز الحب غير المتناهي سعادة هو حلاوته ونكده البغيضين قبل أي شيء آخر . ويمكن لأي شخص (رجلاً كان أم امرأة) ان يتجرع غصص الموت الزؤام اذا مادفع به حظه العاثر الى الغرق عميقاً في حب وغد حقيقي . وسنجد هنا صدى لكل جانب قاتم سمعناه عن همنغواي ، الأمر الذي سيلغي أي باعث قد يثيرنا للتساؤل عن مبررات ذلك المقت الشديد الذي كان يبديه لهمنغواي ذلك العدد الغفير من الرجال والنساء ممن عرفوه عن كثب ، كما سنجد كذلك صدى لكل الجوانب الحلوة ، النبيلة ، الجذابة ، والرائعة من شخصية الرجل .

ان هذه هي المرة الاولى التي سيكون بمقدورك فيها أن تقرأ كتاباً عن همنغواي دون أن تشعر بالحاجة لأن تقرر مع نفسك فيما اذا كنت قد شغفت به أم لا . انه بكليته هنا ، بل هو والله حي أمامك ! وبامكانك أن تراه بالكامل ، فهو طيب تارة وفظ تارة اخرى ، وهو مرهف طوراً وثقيل طوراً آخر على مر أيام السنة المتقلبة . وتتشكل تناقضاته هنا وحدته ، وينبع حبه للعراك القذر وعشقه لصنعته الأدبية من روح واحدة . ونستطيع ان نحس بالرجل ماثلاً أمامنا الآن وقد استحالت عُقده الى مجرد تقلبات مزاجية ، حيث تصبح كبرياؤه ومراوغته شخصاً واحداً .

وليس هناك أي كتاب آخر عن همنغواي يفصّل لنا بمثل هذه الدقة براءته وتحذلقه ، نزاهته وعجرفته ، جنونه العاطفي وحسه العملي في أن يكون رومانسياً مرعباً الى حد لايصدق . كل هذا لسبب بسيط هو أن الأب كان مخلصاً في الكشف عن طبيعته لابنه . اما نحن الذين أردنا الاقتراب من همنغواي من الخارج فقد تورطنا في مأزق عكر حاولنا من خلاله بلوغ الحقيقة المستترة وراء الاسطورة ، ولكن هذا النمط المعاصر من التحليل قد ثبت خطأ نتائجه . لقد كان همنغواي ، اولاً وقبل أي شيء آخر ، فتىً من وسط غرب اميركا أُخذ بالنجاح الذي جعله مقطع

الجذور ، فأمضى بقية أيامه يحاول إعادة توطين حسه القديم وبلوغ بر الامان باتباع كل حركة تتخذها الرياح ـ وبالكثرة حركاتها ـ خلال موهبته وفزعه . ومما يؤكد روعة الانجاز المشهود ان الاحساس بالموهبة والفزع من نفادها ـ الذي نادراً مايصار الى الاشارة اليه صراحة في هذه الصفحات ـ نجده يمور في كل فقرة من هذه المذكرات الصادقة المؤثرة .

نورمن مَيلر

لاتفخر أيها الموت Death Be not Proud

لم أُوفق ابداً في تجنب الاحساس بالمسؤولية تجاه موت أبي ، كما ان ذكرى وفاته قد دفعتني للتصرف بأشكال غريبة . ففي عام ١٩٦٦ ، أي بعد مضي خمس سنين على انتحاره ، قصدت حفلة كوكتيل اقيمت في ميامي دعي لحضورها بعض من الصحفيين الذين كانوا يغطون محاكمة « كاندي موسلر » . كان الحفل كبيراً وقد تكفل بمهام الضيافـة صديق لي يشغـل منصب عضو إداري في جريدة « هيرالد » التي تصدر هناك ، وكان الضيوف يلفون حول داره والكؤوس بأيديهم يناقشون المحاكمة .

وكان أحد الصحفيين الحضور رجلاً وسيماً في العشرين من العمر ، طويل القامـة ، ضخم الجثة . ولقد استطاع في الحال ربط إسمي الاخير بأبي ، وسألني أسئلة حميدة عنه ، ومع ان مثل هذه التحقيقات كانت مصدر ازعاج وضجر دائم لي ، إلا انني كنت قد اعتدت عليها وقتئذ ، وهكذا فقد قمت ، وبأدب جم ، بترديد الأجوبة الجاهزة على مسامعه حسب مقتضىٰ الحال في مثل هذه المناسبات .

بدا الامر وكأنه قد انتهىٰ عند هذا الحد ، ولكنني صادفته ثـانية بعـد حوالي نصف الساعة وهو يجلس على أريكة وقد استغرق ببكاء مر ورأسه بين يديه . ولقد بدا لي منظر هذا الرجل الراشد والشاب القوي البنية وهو يبكي مقرفاً جداً ، مع ذلك فقد وضعت كفي على كتفه وقلت له مواسياً .

ـ « هل أستطيع مساعدتك على نحو ما ياجون ؟ » .

ـ « ان ماحصل لايرنست همنغواي كان شيئاً مريعاً » قال ذلك وهو يحدّق في عيني بشدة حادّة أقلقني نشدانها لاجابة شافية .

ولم يعد بمقدوري التواصل معه أكثر من هذا .

اخترقتني عواطف متشابكة . ان المرء لايستطيع مواصلة الندم على الماضي طول الوقت فذلك قمين بجلب الأذى له . على الانسان ان ينتشل نفسه من لجة الذكريات المؤلمة كي يواصل الحياة . ولقد بدا لي تورط مثل هذا الشاب في حب شخص لم يقابله أبداً ضرباً من الجنون . كان همنغواي أبي أنا ، ولم يكن مجرد شخص يمتلكه الناس ، وكان موته صدمة كبيرة لي ، فلم لايفهم هذا الاحمق أية انفعالات قوية يمكن ان تعتريني لدى تذكري لهذا الموضـوع ؟ لقد تملكني شعور بالاشمئزاز ففكرت « حسناً ، اللعنة عليه » وقلت له :

- « مادمت مهتماً بموته الى هذه الدرجة ، فلم لاتـذهب الى « آيداهـو » لزيارة قبـره هناك ؟ » ثم تركته وسرت جانباً .

مضت بضع دقائق . وفيما كنت منهمكاً في الحديث مع شخص ما ، اندفع المحرر الشاب نحوي ، وسدد لي من الخلف ضربة قوية افقدتني توازني ، فومضت في ذهني أضواء صغيرة متعددة الألوان تشبه الاحساس الذي ينتاب المرء لدى تهيج شبكية العين بفعل الضغط ، ولم أعد أعي شيئاً الى أن سحبوني عنه بعد ان هشمت انفه ، وكسـرت له إثنتين من أسنـانه الأمامية ، فيما كان نصف أحدى اذنيه يتدلى برخاوة الى جانب راسه . لقد كان يزفر من انفه وفمه دم غزير جعلني أخشى عليه من الموت اختناقاً . فقلبته جانباً ووجهه الى اسفل وسحبته بمساعدة الآخرين الى الشرفة .

واكتشف المضيِّف - الذي كـان أطفاله الأربعـة الصغار يستغـرقون في النـوم اثناء الحفلة - أن شخصاً ما قد فتح كل صنابير الغاز في المطبخ دون اشعال الطباخ . وافترضت في حينه ان تلك الفعلة كانت من عمل ذلك المحرر الشاب ، ثم اتصلنا بزوجة المحرر واستطعنا ايلاجه في السيارة حيث كان يستلقي على المقعد الخلفي ويتنفس وهو فاقد الوعي .

والغريب انني -بعد ان صفا ذهني صبيحة اليوم التالي -لم أُحس بأية شفقة عليه ، كما لم ينتابني اي شعور بالخجل من فعلتي تلك . والشيء المرعب هو انني شعرت بالفخار ، بل وحتى بالسمو ، ووجدتني افكر : « تباً ، لو كان أبي حياً يرزق الآن لاستطعت ان اريه احلى يوم مر به ! » .

ولكنني ماكنت لأجرؤ على محاولة ذلك أمامه .

لم يكن أبي في شبابه رجلاً مريضاً مقرفاً ، كما لم يكن محترفاً شهيراً . اما الحقبة التالية من حياته فقد أمضاها في السكر والعربدة مع متملقين اذلاء . لم تكن العربدة إلا لتخدير الألم الذي رافق فقدانه لموهبته . لقد كان الرجل الذي عرفته لايترك سجلاً او يقدم زاداً ثابتاً من جثة اعتقد عقبان الادب انهم قد التهموها سائغة مريئة دفعة واحدة . كان الرجل الذي اتذكـر رقيقاً ، عطوفاً ، أصيلاً في رحابته ، ومعذباً فوق حدود التحمل . واذا كنا ندعوه دائماً باسم « بابا » فقد كان ذلك بدافع الحب الشديد وليس الخوف . كان الرجل الذي عرفته في شبابي انساناً حقيقياً ، وليس ذلك الذي يظهر في كتاب هوتشنر « بابا همنغواي » . اسمحوا لي الآن ان احدثكم عن بابا .

اعتاد ابي القول بأنه يتخيل رنين الجملة في ذهنه قبل كتابته لها ، وكان يجربها محررة

بمختلف الصيغ حتى يجد ضالته في صيغة « تبدو افضلها جميعاً » . وحينما كان الناس يتحدثون ، كان يقول بان الجمل تنثال عليه متسارعة الى الحد الذي لم يكن بمقدوره احياناً اللحاق بها على الآلة الكاتبة ، ولهذا السبب لم استطع ان افهمه وهو يكتب في الاربعينات والخمسينات لنقاد مثل « كارلوس بيكر » و « مالكلم كاولي » قائلاً : « الكتابة صنعة كئيبة » ، و « مهنة صعبة » وما الى ذلك من عبارات الرثاء للنفس ، أما الآن فقد بدأت أفهم انه كان يقصد وقتذاك بأن مواد الكتابة لم تعد تنساب عفوية عنده مثلما كانت في السابق ، أي أن البئر لم يعد يطفح بمائه ، واصبح بحاجة الى اجراء عملية ضخ اصطناعي . صحيح انه قد امتلك دوماً اذناً مدهشة لالتقاط موسيقىٰ الكلمات ، كما ازدادت خبرته وحكمته بالتأكيد ، ولكن تلك التلقائية القديمة ، الطبيعية ، الاصيلة التي امتاز بها لم تعد موجودة هناك . كان العالم قد كف عن الانسياب من خلاله كانسيابه عبر مرشح منقٍ ليخرج الماء المصفى أصدق وأجمل من العالم نفسه . لم يعد بابا يبدي مشاعره كاحد جواسيس الله ، بل كعميل مخابرات مزدوج كثير التشكي تخونه ادواته ، والاستثناء الوحيد كانت الفترة القصيرة لمغامرته الأفلاطونية مع تلك الشابة الايطالية النبيلة التي زارته في بيته الكوبي ، وجعلت عصاراته الخلاقة تتدفق مرة اخرىٰ . انتجت تلك الفترة « الشيخ والبحر » مع الجزأين الاول والثالث من عمله غير الكامل « جزر في التيار » .

كان الاتضاع والرثاء لقدر الانسان ــ الذي اشارت اليه لجنة جائزة نوبل مُفسرة إياه باعتباره « نضجاً » ــ المحصلة الحتمية لادراك الكاتب كيف تبدو الامور على ارض الواقع بعد افتقاده لعبقريته ، ولتفهمه أيضاً كيف يمكن ان تكون الحياة بالنسبة الى الناس العاديين كل الوقت وهم لايمتلكون أسباب الاطمئنان للعالم مثلما يتوسده هو بفضل المردودات المادية والمعنوية التي منحته اياها تلك العبقرية .

سعى بابا جاهداً للفوز على الدوام فقد كان يمقت الخسارة . لقد اعتاد القول « بوسع الانسان ان يصنع حظه بنفسه ، ياگگ[٣] . اتعرف ما الذي يجعل منك خاسراً ممتازاً ؟ انه التمرين » . ولعله قد أدرك عندما نضبت موهبته ان الذي يصنع أي خاسر ، ممتازاً كان أم رديئاً ، إنما هو القدر .

---

(٣) (clg) « كريكوري » الاسم الاول الكاتب ، وهو صيغة التحبب العائلية .

لقد امتلك دوماً كل شيء . كان بوسامة نجوم السينما في شبابه ، وجذاباً عند النساء بشكل يتعذر على التصديق مالم تشهد ذلك بنفسك ، كما كان حساساً للغاية ، وذا جسد يضج اتساقاً وحيوية ومرونة سمحت له بالجور عليه ، كما ضمنت له الشفاء السريع من الصدمات الجسدية والعاطفية البليغة التي كانت كفيلة بتحطيم اي رجل آخر أقل حيوية منه ، وامتلك خيالاً سامقاً مع احتفاظه بحصافة فطرية هائلة ، وبكلمة أخرى ، فقد حاز مجموعة نادرة من الخصال يسندها حظ موفق باستمرار ـ ذلك التوفيق الذي منحه كل تلك الخصال ، ومكنه من الشفاء من الجرح الخطير الذي ألم به أثناء الحرب ، والذي جعله يدرك معنى اقتراب المرء من حد الموت والتلاشي .

أي عجب يمكن ان يعترينا اذن عندما نجد رجلاً من هذا الطراز الفريد وقد غدا حقوداً حاد المزاج بعد نضوب معينه إثر نشره لروايته « لمن تقرع الاجراس » ؟ لقد كان من غير المعقول ان يصاب أبي بجنون العظمة وهو يتمتع بكل هذه المميزات ، إضافة لمقدرته على وصف ماتمنحه تلك المواهب من إمكانية الاحاطة بالعالم .

ثم ، ومثل صيف هندي ، يعاودك العطاء مرة اخرى ، فتطلع علينا بعمل فني راق قصير ـ لم يكن ذلك الصيف الهندي من الرحابة للسماح بعمل اطول من هذا ـ يكتنز بالحب والرثاء والتفهم ، ثم يأتي ذلك الخريف الطويل يعقبه الشتاء المر الاخير ليسدل ستار الرحمة على الرجل .

ولو قدر لك ان تعرف بابا عن كثب إبان شبابه ، لما كففت عن حبه والاعجاب بعظمته . ولو قدر لك ان تعرفه إبان شيخوخته لما تورعت عن الرثاء له والحزن على حاله بالاستناد الى درجة عمق معرفتك به شاباً .

لم يستطع بابا ابتكار فلسفة تسمح له بالعيش هادئاً أبداً . ولو قدر لي ان امتلك كل تلك المواهب والخبرات ، ولو كنت استطيع تصور ماينتظرنا مثلما كان يفعل هو بعمق شديد ، لما استطعت انا ايضاً ايجاد مثل تلك الفلسفة لي . لقد خبرت تلك النظرة المرتسمة على محيا حيوان جريح والتي توحي لنا بالقول : « اقتلني ارجوك ، انني أتألم » . غير ان الانسان هو الحيوان الوحيد القادر على الضغط على الزناد ، ولقد دفع اناس كثيرون بابا الى الضغط عليه .

في عام ١٩٥١ ، عندما كان عمر والدي اثنتين وخمسين سنة ، وكان عمري تسع عشرة سنة ، تورطت في مأزق عكر على الشاطىء الغربي جراء تناولي عقاراً منشطاً للدماغ قبل ان تصبح مثل هذه الأعمال تقليداً مقبولاً ولم تبد والدتي ـ التي كانت في زيارة لاختها « جيني » في

سان فرانسيسكو ـ كبير اهتمام لفعلتي تلك ، ولكنها ارتأت ضرورة إخطار « بابا » . وعندما قلت لها بأن الأمور ستكون أيسر لو لم نحشر بابا بالقضية أجابتني : « نعم ، ان الكثير من الامور كانت ستبدو أيسر لو لم يكن لك أبوان اثنان » . وعلى أية حال ، فلم تكن والدتي قلقة البتة ، وبوسعي تذكر ذلك كما لو كان قد حصل البارحة . لقد بدت وقتها نحيفة ومتجهمة بعض الشيء ، وكانت تعاني من صداع حاد يعاودها بين الفينة والاخرى . كانت تلك النوبات قد دأبت على معاودتها لعدة شهور ، ولكننا لم نعرها الاهتمام الكافي ، خصوصاً بعد أن أعلمتنا عن عزمها على مراجعة « مايوكلنك » لاجراء فحص طبي شامل « من قمة الرأس حتى اخمص القدم ياكَ » على حد تعبيرها . وعندما سجلت نداءً خارجياً مع والدي لاطلاعه عما جرى لي ، والكلام هنا لخالتي ـ التي لم تكن تحب طبيعة بابا ، والتي لايمكن اعتبارها شاهداً غير متحيز ـ فان الحديث بينهما قد بدأ هادئاً تماماً ، ولكن سرعان ماتعالت صيحات والدتي ، ثم فقدت سيطرتها وبدأت تنتحب .

كنت قد شهدت مقدرة ابي على تحطيم الناس بالكلمات ، كما كنت قد اعتدت سماعه وهو يستخدم تلك المقدرة ضد امي . ففي احدى المناسبات كتب لها رسالة عنونها « كم كانت خادمتي مغفلة ! » شبّه فيها امي بـ « هتي گرين » مليونيرة « وول ستريت » الغريبة الطباع ، وكانت « الخادمة » كناية استخدمها للتعبير عن طبيعة علاقتهما الزوجية السابقة ، غير ان خالتي جيني لم تطلعني على تفاصيل المكالمة الهاتفية مع والدي حتى بعد وفاة امي صباح اليوم التالي . كان كل ماقالته لي هو انها قد أنهت حديثها مع بابا حوالي الساعة التاسعة مساءً ، فذهبت الى فراشها لتستيقظ في الساعة الواحدة صباحاً وهي تصارع ألماً باطنياً حاداً . واثر تعاظم النوبة ، نقلت الى المستشفى فوراً ، حيث أسلمت الروح في صالة العمليات بعد ذلك بثلاث ساعات .

أما ما الذي حصل بعد ذلك فما تزال ذكراه مشوشة في ذهني الى حد ما . فلو كنت قد شاهدت فلم فرانسواز ساگان « مرحباً ايها الحزن » لتذكرت ان بطلته قد تسببت في حادث اصطدام السيارة الذي أودى بحياة زوجة ابيها الجديدة ، ولكي يظهر لنا كيف ان نظرتها للاشياء قد تغيرت تماماً ، فقد لجأ الى تصوير بقية الفلم باللونين الاصفر والاخضر ، ومن خلال عدسة ضبابية . ولقد كان ماحصل لي وقتئذ شيء قريب الشبه من ذلك ، إذ تبدلت أمام عيني صور كافة الاشياء . كان وجه امي وقت دفنها شديد البياض على نحو لايصدق ، واتذكر انني كنت افكر دامع العينين بمدى فظاعة مناسك الدفن الانكلوسكسونيه ، غير أن مرور الزمان

تكفل برأب الصدع ووضع الأمور بمنظور سليم، وسرعان ماتحسنت حالتي . وبالاضافة الى هذا ، فقد تحولت فجأة من ميكانيكي طائرات فقير ، يكافح لتوفير لقمة العيش لزوجته وطفلته ، الى شاب غني حصل على ثروة صغيرة من تركة والدته . كانت حصتي من الميراث مساوية لحصة أخي ، وهذا ما فاجأني لأنني كنت على يقين ثابت من كون امي تؤثره علي ، ولم ادرك إلا وقتئذ بأن حبها لي كان أكبر مما كنت اتصور .

ولكن كان يوجد هناك خطأ ما ، فقد بدت لي الأشياء التي كنت ابتغيها قبلئذ اصعب على المنال الآن مع قدرتي على تحقيقها بيسر ، ولم أكن أفهم سبب ذلك على وجه اليقين .

بعد الجنازة بعدة شهور ، زودني محامي والدتي بدفعة من المال لتمويل رحلتي مع زوجتي وطفلتنا الصغيرة « لوريان » لزيارة دارة بابا « الفنكا » في كوبا . لم يكن بابا قد تعرف على زوجتي من قبل ، وقد أثنى على اختياري فور رؤيته لها لانها كانت فتاة ذكية وجميلة عملت موديلاً عن « پاورز » قبل زواجنا ، كانت زوجتي « جين » شبه هندية ـ أو بالأحرى كانت تقاطيع وجهها هندية ، إذ امتلكت وجنتين بارزتين من النوع الذي يثير اعجاب المصورين وبابا ايضاً . ولعلها قد ذكرته بفتاة هندية كان قد وقع بغرامها في شبابه ، غير انني لست على يقين من ذلك تماماً إذ اننا لم نبحث هذا الموضوع معاً .

وقبيل اختتام زيارتنا له ، بدأت أشعر بشيء من التحسن ، حيث استمتعت بممارسة مختلف الهوايات المحببة الى نفسي ، التي كنت قد اعتدت الانغماس فيها خلال سني عمري المبكرة ، وباسهام زوجتي فيها .

بعد ذلك ، وفي مساء ما ، وفيما كنت في مزاج حاد ، تحدثت مع بابا عن خطتي للمستقبل ، وعما جرى لي مؤخراً مشيراً الى ورطتي على الساحل الغربي التي بررتها بالقول :

« في الحق يابابا انها لم تكن أمراً بالغ السوء » .

فرد عليّ بالقول :

ـ « هكذا ؟ حسناً ، لقد أودت في الواقع بحياة امك » .

ومهما كانت الدوافع وراء تعليقه هذا ، إلا أن المرشح الأصفر المخضر عاد يسم قتامته على ناظري من جديد ، ولم يبارحني هذه المرة طوال سبع سنين متواصلة . لم أردّ عليه في حينها بأية كلمة فقد كان محقاً على الدوام في تفسيره للاشياء ، كما كان مفحماً في نقاشاته . ولما كنت أعرف مبلغ حبه لي ، فقد أدركت انه لابد قد وجد نفسه مضطراً لقول جملته الاخيرة ، فصدقته انا لذلك .

وحينما غادرنا « الفنكا » متوجهين للمطار ، اتذكر انه قدم لي هذه النصيحة :

- « لاينبغي لك ان تعتمد من الآن فصاعداً على اية ودائع ائتمانية خرقاء » .

ولادراكي فوراً مغزى دعابته تلك فقد ابتسمت له وأنا أودعه .

وبالطبع فلم يقدر لي ان أراه مرة اخرى لأن النعش كان مغلقاً ساعة تشييعه .

واقنعتني زوجتي بدراسة الطب حيث نبهتني يوماً قائلة :

- « لقد كان جدك طبيباً وأتصور انك تستطيع ان تصبح طبيباً ماهراً أيضاً » .

شكراً لك ياجين على تلك النصيحة الموفقة . وعندما تحطمت الطائرة التي كان يستقلها بابا في أفريقيا عام ١٩٥٤ ، كنت ما أزال في سنتي التحضيرية الثانية لنيل شهادة الاعدادية . كانت العناوين البارزة الاولى في الصحف تفيد بأن حطام الطائرة قد أمكن تحديد موقعه ولا يبدو ان هناك أي احتمال لبقاء أحد من الركاب عن قيد الحياة ، ولقد ادركت لحظتئذ مدى حبي له وأنا أتصور بأنه قد فارق الحياة ، وعندما اكتشفت بعد ذلك فوراً بأنه مازال حياً يرزق ، قررت أن أسوي خلافاتنا حالاً . وبعد نيله جائزة نوبل للآداب في تشرين الاول من ذلك العام ، أبرقت له مهنئاً فأجابني سريعاً وقد أرفق رسالته بشيك مبلغه خمسة آلاف دولار علق عليه قائلاً بأنه يمثل الفضلة المتبقية فوق الحد الأعلى للمبلغ غير الخاضع للضريبة في السويد ، ولقد أثر في نفسي كرمه فقررت ان اسافر الى أفريقيا ، وعلى الرغم من انني كنت قد بذلت مجهوداً طيباً في الفصل الدراسي التحضيري وحصلت على معدل جيد ، الا انني لم اكن امتلك وقتها الثبات الذهني المطلوب لمن يريد ان يصبح طبيباً . كنت اعرف ان قدراتي العقلية قد استنفدت - على الاقل وقتياً .

كنت قد شببت على حب أفريقيا . وكان الشيء المهم بالنسبة لي ليست أفلام « مارتن جونسن » عن « استكشاف القارة السوداء » - التي تصور سكانها وهم يرتدون ملابس مصنوعة من ريش النعام ، ويتقاطرون على طائرته المخططة - بل رؤوس الحيوانات المحنطة التي تزين الدار التي نشأت فيها في « كي وست » ، وسجادة فروة الاسد على الارضية ، و« تلال افريقيا الخضراء » ، ذلك الكتاب الجميل الذي يصف رحلة ابي وامي الى افريقيا . ولقد عقدت العزم على السفر للتمتع بمشاهدة تلك التلال الخضراء علّني اجد العزاء بقربها .

وكنت مأخوذاً بالفيلة ايضاً . ولو كنت بحاراً لآثرت صيد الحيتان واقتفاء أثر اكبر المخلوقات طراً . ولكن لا ، ليست الحيتان الرمادية رجاء ، ليست الفيلة البيضاء . لقد كان الشيء الذي اصطاده اكثر ضخامة وقتامة في ذهني .

كنت التقط آثار اقدام الفيلة عند الفجر واتتبعها طول النهار القائظ الحر بأكمله ، ولا اتوقف الا اذا فقدت اثرها . ولم أكن اتناول ولا حتى قطرة ماء واحدة الا بعد التأكد من نتيجة المطاردة . واخيراً كنا نلحق بالطرائد حوالي الساعة الرابعة عصراً في اغلب الاحيان وهي تستظل من لفح الشمس تحت شجرة سنط عملاقة ، وكان الخطر والتوتر يتزايد كلما اقتربت منها ، ثم تأتي أخيراً الاطلاقة الفاصلة . كانت اصابة القلب أحوط ، اما الدماغ فقد كان بالامكان اصابته بشكل أسرع ولكنه أصعب ، ولقد كنت اختار الدماغ دائماً .

بعد ذلك يأتي الحزن المرير وانا اشاهد ذلك المخلوق العظيم وهو يرقد على الارض بلا حراك ، وادرك انه سوف لن يستطيع ملاعبة عائلته بطريقة شبه آدميّة مرة اخرى ابداً ، وانه سوف لن يستطيع الامساك بالاغصان الريانة التي لايفكر اي حيوان غيره حتى بمحاولة بلوغها ، وانه سوف لن يعاود اخراج الاصوات وهو يهضم وجباته بما يشبه رعد الله ...

ولكن تبكيت الضمير كان يمضي سريعاً حيث يكون الارهاق قد هدّني عندها ، فتأخذني سنة من النوم ، فيما يتكفل المساعدون بسلخ وتقطيع العاج الثمين من الجمجمة لبيعه الى المهربين مقابل الخمور وتجهيزات الصيد القادم . ولابد ان مساعدي اولئك قد تصوروا بأنني أصبحت فاحش الثراء ، ولكنني كنت قد نلت الغنى بمعنى آخر ، إذ أصبح الصيد هو المنفى المطلوب ، وهو الهدف المنشود بحد ذاته .

قتلت ثمانية عشر فيلاً في غضون شهر واحد ، ليسامحني الله ، ولكن ما فائدة الهرب اذا كان الغثيان المستمر يواصل الامساك بك ، ووجدت نفسك آخر المطاف في حالة من التردي مثل حالتك في اليوم الذي بدأت فيه ذلك العمل ؟ وعندما يسألني الناس إن كنتُ قد رافقت بابا في رحلات الصيد أجيبهم بلا ، ولكن بابتسامة غريبة لانني مارست الصيد مع بابا بطبيعة الحال خلال عدة رحلات لنا الى أفريقيا ، ولم تقدم افريقيا ملاذاً قط . لقد عملت ثلاث سنين بصفة صياد محترف تحت التدريب فتعلمت لغة السواحيلي ، واسلوب تهيئة سيارة اللاندروفر ، وعرفت أماكن تواجد الطرائد وكيفية اصطيادها ، ولكنني لم أتعلم السيطرة على شرب الخمرة عندما أكون في المدينة . ولما كانت تلك هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع موظفو دائرة الصيد مراقبتي خلالها ، لذلك فإنني لم أحصل أبداً على إجازة صائد محترف لاعتقاد اولئك الموظفين بأنني أقل اتزاناً مما ينبغي ، ولقد كانوا على حق في ذلك .

شعرت بالذنب ازاء ميراث امي وفكرت على هذا النحو : لما كنت أنا الذي تسببت في موتها فلابد أن أموالها ملطخة بالدماء ، لذلك فقد بددتها باسرع مايمكن . وفشل زواجي أخيراً ،

فالتحقت بالجيش وهناك تطوعت في صنف المظليين ، غير انني اخفقت في الاختبار لفشلي في اكمال سباق عدو الأميال الخمسة (ومن يدري ، فلربما كنت أخاف القفز من الطائرات أيضاً) . وبعد خدمة غير لامعة في وحدات عسكرية سلمية ، عدت الى أفريقيا لامارس القتل مرة أخرى ، ولقد كانت رحلتي هذه شافية الى حد ما ، فعلى الرغم من استمرار المرشح الأصفر المخضر بمعايشتي عاطفياً ، الا ان ذهني كان قد اكتسب الحدة المطلوبة ، فعدت الى الولايات المتحدة لانهي سنتي التحضيرية الاخيرة ولأدخل كلية الطب ، وكان أول شيء قمت به هناك هو الكتابة الى المستشفى الذي توفيت فيه والدتي طالباً تقرير تشريح جثتها ، ولقد اوضح التقرير الذي استلمته بأنها قد توفيت بمرض اسمه « فيكروموسايتوما »[4] وهو داء خبيث نادر يصيب الغدة الادرنالية .

وهو ورم غير اعتيادي لأنه لايقتل بمهاجمته الاعضاء الحيوية ، وانما بتسببه في افراز كميات هائلة من الادرنالين ينجم عنها ارتفاع شديد في ضغط الدم غالباً مايفضي الى انفجار شريان ما ، وهناك نوعان من هذا الورم :

النوع المتقطع الافراز ؛ والنوع الثابت . واستناداً الى الاعراض التي كانت تعاني منها والدتي قبل وفاتها فانني أميل الى الاعتقاد بأنها كانت مصابة بالنوع المتقطع الافراز ، ومن شأن أي باعث بسيط ـ كالوقوف فجأة ، أو الارتطام من الخلف في حشد ما ، او القلق العاطفي الناجم عن حلم مزعج ـ ان يحفز النوع المتقطع من الداء على الجيشان وافراز تلك الكميات الهائلة من الادرنالين . ومن سخرية القدر أن « مايوكلنك » ـ التي كانت والدتي قد عزمت على الرقود فيها بضعة اسابيع لاجراء الفحوصات الضرورية ـ كانت وقتذاك واحدة من مؤسستين او ثلاث مؤسسات صحية امريكية فقط يستطيع المرء أن ينال فيها فرصة ممتازة للتخلص من ذلك الورم الخبيث بنجاح .

كتبت لأبي عن كل هذا في صيف عام ١٩٦٠ مؤكداً له بأن مشاكلي الثانوية لم تكن هي التي قتلت أمي ، وان مكالمته الهاتفية الفظة معها قبل وفاتها بثمان ساعات كانت هي التي أودت بحياتها . وقتها كان الورم قد التهب ، وعندما « ثار » عليها في تلك الليلة ، فقد سبب ارتفاعاً صاروخياً في ضغط الدم أفضى الى انفجار وعاء دموي متوسط الحجم داخل المنطقة الملتهبة ، او الى جانبها ، ثم توقف الورم عن افراز الادرنالين تماماً لينخفض ضغط الدم لديها فجأة من

---

(٤) (Pheochromocytoma) ورم خلايا الكرومافين القاتمة .

ثلثمائة الى صفر ، فقضت نحبها بفعل الصدمة على سرير العمليات .

وبوسعي تخيل الاحباط الذي انتاب الجراحين وهم يبحثون دون طائل عن أثر لقطرة دم واحدة في منطقة البطن ـ التي كانت تشتكي منها امي في البداية ـ تفسر لهم ذلك الانخفاض القاتل في ضغط دمها . ويبين تقرير العملية الجراحية بأنهم لم يجدوا دماً داخل التجـويف البطني ؛ في حين أظهر لهم التشريح التالي تواجد كمية لاتزيد على خمسمائة سنتمتر مكعب من الدم في التجويف المحيط بكليتها اليمنى .

ولابد ان بابا ـ باعتباره ابن طبيب ، ولامتلاكه ثقافة طبية واسعة ـ قد تخيل هو الآخر درجة اهتياج الجراحين لموت امي الغامض ، فطبقاً لشهادة رجل كان معه في هـافانـا وقت استلامه لرسالتي ، فقد اصابته نوبة غضب عنيف أولاً ، ثم راح يتمشىٰ صامتاً حول الدار لبقية ذلك اليوم .

بعد ذلك بثلاثة شهور ، بدأت عنده اولى الاعراض البينة لجنون الارتياب والقلق من مطاردة رجال مكتب التحقيقات الفدرالي الامريكي له بتهمة التملص من دفع ضريبة الدخل .

لكم أود ان يكون التتابع الزمني ، الذي يبدو مصيرياً في الظاهر الآن ، قد حدث بفعل الصدفة المحضة فحسب ، فلطالما استحوذتني فكرة مدىٰ السرعة التي تتوالىٰ فيها الأحداث التي يبدو الواحد منها سبباً للآخر . ويعلم الله أنني ما كنت لأكتب لبابا عن المرض الذي قتل امي لو كنت اعلم ان ذلك سيثير عنده كل هذا القلق ، فهناك فرق بين التصميم على قتل شخص ما في العقل الباطن واقتراف الجريمة فعـلاً . ان هذا الفـرق هو الذي يجعـل منا بشـراً ، وبالاضافة الى هذا ، فقد كنت اتصور ان شخصاً يتعشق الحقيقة مثل بابا لابد ان يكون على استعداد دائم لتلقيها . ألم نتعلم ان نتصارح بالحقائق مع بعضنا ؟

اتصل بابا هاتفياً بي إثر تسلمه لرسالتي التي أعلمته فيها بقبولي في كلية الطب بجامعة ميامي ، وكان الاتصال الهاتفي مع كوبا سيئاً كالعادة ، وكنت أسمع صوته الحاد بغرابته وهو يكرر تعليماته للمشغّل عدة مرات قبل ان يستطيع التقاط حديثي بنفسه .

ـ « تهاني ياگگ ، وان كنت أشك في أنك ستصبح طبيباً جيداً ، فأنت لاتستطيع حتى تهجي كلمة « الطب » بشكل صحيح ! » .

وضحكت لأنني كنت قد بدأت اخيراً بعمل شيء مجدٍ ، وكنت اعرف مدىٰ فخر بابا بهذا على الرغم من مزاجه الثقيل في الظاهر .

ولكنه استمر على هذا المنوال :

ـ « كان جدك طبيباً جيداً ولكنه قتل نفسه ، « وقفة » ، زرت اليوم طبيباً جيداً فأخبرني بانني مصاب بمرض نادر من شأنه ان يسبب لي فقدان البصر والفحولة دفعة واحدة » .

احتاجت كلماته عدة ثوان كي تغوص ، ولكنني اتساءل الآن فيما اذا كنت قد فطنت في حينها لأبعاد المغزى الحقيقي لحديثه ذاك ، وما تزال نبرة كلامه المرة المسطحة تلك ترن في اذني .

ولقد رددت على مسامعه العبارات التي يمكن ان تقال بحكم العادة في مثل هذه المناسبات : « الاطباء الكوبيون غير أكفاء » وطلبت منه الذهاب الى نيويورك لاستشارة طبيب هناك . اعتذار : أغلب الاطباء الكوبيين أكفاء ، وبعضهم ممتاز .

ـ « لا أعرف أحداً هناك . » قلت انا ، « ولكنني اعرف بعض الناس ممن لهم معارف مشهورون وسأقوم بمكالمتهم » .

ـ « لقد قمت بذلك وسأتوجه الى هناك حالاً ، انها مجرد مسألة وقت » . ثم تغيرت نبرته بعد لحظة :

ـ « أتتذكر عندما شاهدنا لوحة « بوش »[٥] تلك عن نهاية العالم حيث تشاهد الشياطين متجمعة حول الآثمين ؟ وقتها أشرت لك الى شخص مهندم ماجد وهو يقوم من كرسيه محتجاً ومجرداً سيفه ، هل تتذكره ؟ لقد لفت انتباهك اليه دون سواه من الهيئات القبيحة وقلت لك .. انظر .. انظر اليه هناك ، هل يظن بمقدوره معالجة الموت بالسيف ؟ وقد تصورت وقتها انك قد فهمت مرادي جيداً » .

وطبقاً لشهادات الاشخاص الذين كانوا معه خلال تلك الفترة ، فان مزاج بابا قد تبدل تماماً بعد زيارته لذلك الطبيب ، فقد أقلع عن الخروج تماماً وغادرته روحه المرحة ، ومعها انتهت الاوقات الجميلة في الفنكا . لقد بدا كما لو كان قد تخلى عن الحياة منذ ذلك الحين .

لم تبد له حقيقة عدم وجود مرض شائع يسبب العمى والعجز الجنسي غير السكري ـ وهو مالم يكن يشكو منه ـ مسألة مهمة . ثم انك عندما تطلب مشورة طبيب العيون فان هذا الاخير لايتبرع لك بالمعلومات الاضافية فيسر اليك بأن حالة عينيك تمثل جزءاً من التأثيرات الناجمة عن مرض يؤدي الى الخنوثة .

وعندما أُحاول إعادة ترتيب الحوادث على النحو الذي يمكن ان تكون قد جرت فيه

---

(٥) هيرونوموس بوش (١٤٥٠ ـ ١٥١٦ ؟) رسام فلمنكي .

لا أشك في أن بابا لابد ان يكون قد استفسر من ذلك الطبيب عما اذا كانت حالة عينيه يمكن ان تسبب الخنوثة ، وان الطبيب اياه قد أجابه ، دون كبير تمعن ، « حسناً ، نعم ، ان بامكانها ذلك » . على الطريقة التي يوارب فيها الاطباء عندما يجهلون عما يتحدثون . وبالتأكيد فلابد ان بابا كان قلقاً من ضعف قواه الجنسية منذ وقت سابق . ومن الضروري ان نتذكر بأن فقدان القدرة على الانجاز الجنسي تعني اشياء مختلفة لدى مختلف الناس ، اذ يمكن ان يعتبرها بعضهم ، ممن اصبحوا غير قادرين على الانجاز بالدرجة التي اعتادوا عليها قبل عشر سنوات علامة مخيفة تنبئهم بأن ايام نشاطهم الجنسي قد باتت معدودة .

ويفيدنا علم النفس بأن حوالي ٩٥ ٪ من حالات العجز الجنسي تعود الى أسباب نفسية ، وهذا شيء محتمل ، ولكن الله يعلم أن أبي كانت له اسبابه العضوية ايضاً ، فقد كان كبده في حالة واهنة منذ عدة سنين ، وتقوم الغدة الادرنالية ـ حتى عند الذكور ـ بافراز الاستروجين ، أي الهرمون الانثوي ، الذي يتكسر في الكبد ، ولكن عندما يصبح الكبد ضعيفاً فان ذلك يمكن ان يفضي الى تراكم تركيز عال من الآستروجين في الجهاز الدموي يؤدي الى إضعاف القدرة الجنسية .

ولكن ربما كان المؤثر الحقيقي هو عقار « الرزربين »[٦] الذي كان والدي يتعاطاه بجرعات كبيرة للسيطرة على ضغط الدم الذي كان يشكو منه . وبوسع هذا العقار ان يفضي الى الفتور الذهني ، وله كذلك تأثير شال على الجهاز العصبي البارسمبثاوي الذي يتحكم في الأداء الجنسي ، وبالاضافة الى هذا فان الفتور الذي ينجم عن تعاطيه يمكن ان يتواصل لعدة شهور بعد الاقلاع عن تناوله ، وتلك حقيقة لم تكن قد اكتشفت بعد عندما كان بابا يعالج من قبل الأطباء بذلك العقار عام ١٩٦١ .

مسكين بابا العجوز . لم يكن الحصول على تشخيص آخر مخالف ومجرب لحالته ـ وهو ماحصل عليه فعلاً بعد ذهابه لاستشارة الاختصاصيين في نيويورك ـ ليعني له الشيء الكثير ، ولم تنفع كثيراً تأكيدات ذلك الأخصائي الشهير في « پارك افنيو » له بأن ليس هناك مايخشى عليه . كان يعلم انه لم يعد يستطيع الرؤية جيداً حتى بمساعدة تلك العدسات الكبيرة التي وصفها له ذلك الاخصائي الكبير ، وأكبر الاحتمال أنه لم يستفسر

---

(٦) (Reserpine) مصلى أستخلص اصلاً من جذور نبات اسمه العلمي « راوولفيا ـ سربنتينا ، Rauwolfia Serpentina) ويصنع الآن تركيبياً في المختبرات ويستخدم بكثرة كمهدىء في حالات ارتفاع ضغط الدم وغيره من الامراض النفسية المنشا .

منه عن حقيقة مسألة العجز الجنسي ذاك . لقد كان يكفيه راي طبيب واحد طالما تساوق مع تشخيصه الذاتي لحالته . وكانت كآبته من الشدة بحيث انه لم يعد يصدق كلام اي طبيب آخر ، فكثيرة هي المرات التي شاهد فيها والده وهو يحاول قبل سنين التخفيف من وقع حالات ميؤوس منها ببث الأمل الكاذب لدى مرضاه .

وغالباً مايبدو من الطبيعي ان يدرك الكبر جميع الناس وان يعتريهم الوهن طالما ان الشيخوخة تمنحهم اخيراً الكرامة والتكامل للتعويض عن ضعفهم البدني ، ولكن بابا ، الذي لم يعرف الضعف الجسدي ولا العقلي في شبابه ، لم يتقبل واقع وضعه الجديد ، واتصور انه قد ابدئ شجاعة كبيرة في قبول الخيار الاخير المتبقي .

« كي وست » Key West

كنت أنا الابن الثالث الأصغر الناتج من احدىٰ كوارث أبي العاطفية المتراكمة ، أي احدى زيجاته الاربع ، وكانت امي « پولين » وهي زوجته الثانية التي انتزعته من زوجته الاولى « هادلي » عندما كان يكتب روايته « ستشرق الشمس أيضاً » . وكان ابي قد رزق بابن واحد من زوجته الاولى اسمه « جاك » اما أنا فقد ولدت عام ١٩٣١ عندما كان عمر أخي الشقيق « پاترك » ثلاث سنين ونصف . ولقد أبصر كلانا النور بعملية قيصرية ، وكان الاطباء يعتقدون إبان العقد الثلاثيني بأن اجراء أكثر من عمليتين قيصريتين يفضي الى انفجار المهبل ، لذلك فقد نُصحت والدتي بوجوب عدم انجاب اطفال آخرين ، وكانت لأبي رغبة طاغية في انجاب فتاة ، لذلك فقد كان ميلادي يعني بالنسبة الى امي أنها ـ أو بالأحرى أنا شخصياً ـ قد نسفت الفرصة الاخيرة لها كي تسعد بحب أناني مجنون . كان باترك قد ولد خلال الدفقات الاولى لعلاقتها المتفجرة مع أبي ، وكانت تحب «پات» كثيراً ، وتظهر ذلك في كل مناسبة ـ وهو أمر لم يكن جريمة بالتأكيد ولكنه كان يغيظني جداً لسوء الحظ .

ولقد فعلت كل مابوسعي للفوز باهتمام امي ، ولكنني لم أكن اكثر من ثمرة شائكة تحت سرج الحصان . حاولت جاهدا تقليد پات دون طائل ، كما قلدت أبي ، انما بنجاح أقل ، وهو ماعكرني لأنني كنت اعلم مدى حب والدتي له . شاهدتها مرة بعد طلاقها وهي تحدق باعجاب في احدى صور بابا عندما كان فتى ، فاقترحت أنا عليها فكرة كوني شبيهاً به بعض الشيء .

ـ « انك لاتشبهه البتة » قالت لي ذلك بصوت مسطح واضح ، « هنالك تشابه سطحي بينكما فحسب لان كلاكما يرسل شعره على جبينه » . ثم قالت بما يشبه الهمس كما لو كانت تفكر بصوت عال : « تالله كم كان وسيماً ... انظر الى تلك العينين المليئتين بالحياة والبهجة » .

ولقد ألقت والدتي مهمة تربيتي كاملة على عاتق « آدا » تلك المربية الغريبة الأطوار ذات الاستبداد البروسي . لم تكن آدا قد تزوجت في شبابها الذي كان قد ولى بُعيد وقت لقائنا . وعندما كنت رضيعاً راجت في حينها نظرية مفادها وجوب ترك الرضيع وشأنه عند بكائه من اجل الرضاعة لان ذلك يقوي الرئتين ، وقد علمت بأن آدا كانت متمسكة بتلك النظرية

بما يشبه الثبات الديني .

وكثيراً ما كان والداي يسافران برحلات طويلة معاً تاركينني مع آدا . كان عمري ثلاث سنين ونصف عندما قاما بسفرتهما الى أفريقيا ـ التي استغرقت تسعة شهور وانتجت « تلال افريقيا الخضراء » ـ فأرسلت مع آدا الى مسقط راسها في الشمال في « سيراكوزا ، نيويورك » ، أما شقيقي باترك فقد حظي برعاية افضل من هذه .

كان أي خرق طفيف لتعليماتها الكثيرة يجعلها «تطير» في نوبة من الصراخ العالي وتبدأ « بأكل السجادة » على حد تعبير الألمان ، ثم تشرع بحزم حقائبها وتسرع نازلة السلّم وأنا أتشبث بتنورتها وازعق :

ـ « آدا ، لاتتركيني ، أتوسل اليك ، لاتتركيني . . »

ـ « انني باقية أيها المزعج الصغير ، ولكنك إن أسأت التصرف مرة اخرى فـ .. »

ولقد مارسنا هذه اللعبة جدياً عدة سنوات ، وحينما ادركت يوماً بأنها لم تكن جادة في ذلك ، إذ لم يكن تهديدها بتركي غير مجرد مزاح من طرفها ، كانت وقتها قد نجحت في قولبتي حسبما تريد .

واستطاعت والدتي ان تجعل دواعي إهمالها لي خلال سني عمري المبكرة واضحة لي بعدئذ عندما اعترفت لي قائلة :ـ

ـ « المشكلة ياكك هي انني لا أمتلك الكثير ممايدعونه بعاطفة الامومة ، حسب اعتقادي . فليس بمقدوري «تحمل» الأطفال الصغار «المخيفين» إلا بعد مناهزتهم عامهم الخامس ، ومع أنهم يبقون مزعجين تماما في تلك السن ، ولكنني أكون قادرة عند ذاك على التفاهم معهم بمستوى شبه عقلاني على الاقل ، ولهذا فقد اوكلت الى آدا مهمة تربيتك على الدوام ، ولكنني احببتك ياحبيبي ، لقد احببتك حقاً وإن كنت لم أُظهر ذلك لك كما أعتقد » . ولقدتفهمت ذلك تماماً وسامحتها عليه وان لم يأت ذلك في وقت مبكر .

والآن ، هل بدأت تدرك لم كونت انا مايسميه علماء النفس بـ « علاقة متينة وقوية على نحو خطر » مع أبي ؟

والغريب ان اولى ذكرياتي عن بابا هي رؤيتي له وهو يزعق بوجهي صباح يوم مبكر عندما كنت العب في الحديقة طارقاً زوجين من المقالي ببعضهما ومثيراً ضجيجاً هائلاً . وفجأة لاح بابا من على شرفته بالطابق الثاني وهو يبدو ضخماً ومنفعلاً فصاح ..

ـ « هل بامكانك رجاءً ان تلزم الهدوء ؟ إنني «احاول» أن أكتب »

ولم يصرخ بوجهي ثانية أبداً .

وتأتي الذكريات الاخرى عن كي وست كومضات غير متكاملة . كان البيت العتيق الذي نسكن فيه مصمماً على الطراز الاسباني ، ويتألف من طابقين تحيط بهما الشـرفات ، وسقوفه عالية ، مما يجعله ابرد كثيراً من غيره من بيوت الجزيرة ، ولقد دأبت والدتي على ترتيب وتبديل اثاثه ، كما قامت ببناء حوض للسباحة كانت تتفاخر به قائلة :

« انه المسبح الوحيد الكائن بين ميامي وبنما . »

ولكن ما ان انتهى العمل في بناء واعداد المسبح أخيراً ، حتى كانت عائلتنا قد انتهت هي الاخرى أيضاً .

وبالرغم من ان طفولتي المبكرة قد تزامنت مع فترة الركود الاقتصادي الذي عم اميركا الا أن عائلتي لم تواجه سوى بعض المتاعب المالية الطفيفة بفضل واردات أبي من روايتيه « ستشـرق الشمس ايضاً » و « داعـاً للسلاح » ، وثـروة أمي التي كانت بمثـابة مـرهم « سلونز »[٧] الشافي ، وان كنت أعتبرها الوريثة التي حصلت على المال من دون كد . وبينما أمنت لنا ثروة أمي الحياة الرغيدة ، فقد حال الجدار المحيط بمساحة « ايكر » من الارض بيننا وبين الاصطدام بوقائع افظع تدور حولنا ، ففي كل يوم كان المتسولون الجياع يطرقون بابنا قائلين لي « هل لنا يابني بقرش نشتري به بعض الفاصوليا ؟ » ولقد اعتقدت وقتها بأن تقديم المساعدة لهم عمل نبيل ورومنطيقي يشبه الخروج الى طريق واسعة ، وكل حسناتك الدنيوية مشرعة بقطعة حمراء ترفرف على قمة عمود عال .

لاحقت يوماً احد المتسولين بعد أن نقدته قرشاً ، وكنت أتساءل كيف ان مبلغاً تافهاً كهذا يستحق بذل كل ذلك الجهد لقطع مسافة ليست بالقصيرة ، ولقد تابعته أثناء مسيره في شارع « وايتهيد » بطوله بالغاً الطرف الآخر من الجزيرة . كان التعب قد هدني وكنت عـلى وشك العودة حينما رأيته يدخل حانة « سلوبي جوز » ليبتاع الجعة !

اتمنى لو كان بمقدوري ان أتذكر اموراً اخرى عن حانة السيد « جوز » حيث دارت فيها ـ طبقاً لأقوال الاشخاص الذين كتبوا عن أبي ـ أحاديث شيقة ، وكانت مسرحاً للعديد من اللقاءات الممتعة ، كاللقاء الأول بين أبي والمرأة التي ستحل محل امي ـ زوجته الثالثة « مارثا گلهورن » ـ ولم يكن يسمح لي بدخول الحانة ابداً لصغر سني ، ولذلك فقد كان يتوجب

---

(٧) (Sloan's) مروخ سويدي مشهور يستخدم لتهدئة مختلف الآلام .

علي الانتظار في المقعد الاضافي الخلفي للسيارة بينما يقوم بابا بتناول « كأس عجلىٰ » ، غير ان بابا والسيد جوز كانا يسمحان لي بالدخول احياناً عندما تكون الحانة غير مزدحمة بالرواد .

كان البار طويلاً ذا مقاعد عالية صفت الى جانب واحد . وخلف البار كانت هناك لوحة « الوقفة الأخيرة » لكستر[8] وهي تصوير ليثوغرافي يشاهد فيه « لسونكك هير » تعلوه نظرة إقدام وتعجرف محاطاً من كل جانب بمقاتلين من الهنود الشاحبين الموتى - وبمقاتلين حمر احياء تحدوهم رغبة جامحة للقتال . « لقد اذاقهم مر الجحيم ، أليس كذلك يابني ؟ » كانت العبارة التي أسمعني إياها احد السكارىٰ وهو يلاحظني احدّق باللوحة . وفي الزاوية البعيدة من الحانة كان يمكن أن تشاهد ثملاً آخر برجل واحدة وهو يفترش الأرض على الدوام . ولقد ناداني مرة قائلاً « تعال هنا ياصغيري وقدم يد المساعدة لبيطري عجوز كي يقف على قدمه » . ولكنني ما ان ذهبت لتقديم المساعدة له حتى اصابني الرعب من محاولته ضربي بمذيلته ، ولم أقترب من ذلك النذل مرة اخرى أبداً .

وكان يوجد هناك أيضاً « ويلي گيتس » لاعب البيسبول الثالث المشهور وهو من أهل المنطقة . لعب گيتس البيسبول مع فريق « بروكلين دوجرز » ثم « فقد ذراعه » ، ليس بالمعنى الحرفي طبعاً مثلما هي الحال مع ساق البيطري الثمل . كان گيتس يشاهد باستمرار وهو يجلس حزيناً هناك مفكراً بيده العظيمة تلك مثلما كنت أفترض ، ويخدر بالكحول ذكرىٰ فقدانه لمهارته في اللعب . كما أحببت « سكنر » ذلك العملاق القوي الأسود الذي تعلو محياه ابتسامة « لويس آرمسترونگ »[9] والذي كان بوسعه دائماً تسول كأس من الشراب مقابل جلوسه تحت البيانو ورفعه له بقوة منكبيه الضخمين ، أما « سلوبي جوز » فقد كنت اجده ممتعاً كلما أذنوا لي بالدخول لمشاهدته .

الا أن ملاحقة بابا وهو يطوف بالمدينة لم تكن عملية سهلة على الدوام . كان بابا يحب صيد الأسماك ، وبدا وكأنه يركب البحر ، كل يوم . كنت احب البحر كما كان صيد الأسماك جميلاً ايضاً . كانت الأسماك الشراعية تقفز فوق صفحة المياه في أماكن لايمكن توقعها ، وكنت تشاهدها تنط في الهواء على الدوام برشاقة « نورييف »[10] ، وتسقط على جانبها على النحو الذي اعتقد جازماً بان « نورييف » سيختاره لو كان في البحر .

---

(٨) جورج آرمسترونگ كستر (١٨٣٩ - ١٨٧٦) مقاتل وجنرال امريكي هندي .

(٩) (لويس ساچمو آرمسترونگ ، موسيقي وعازف جاز امريكي شهير ولد عام ١٩٠٠ وتوفي عام ١٩٧٩ .

(١٠) رودولف نورييف - ولد عام ١٩٣٩ ، راقص باليه مشهور . ولد في الاتحاد السوفيتي وهاجر الى الغرب .

غير ان تلك المتعة كانت تفوتني في أغلب الاحيان عندما البث قابعاً في القسم الأسفل من اللنش وأنا أتقيأ أو أتدحرج على سريري جراء الم قاتل لايدرك مبلغه إلا اولئك الذين جربوا دوار البحر . وفي إحدى المرات اضطررت الى النزول تحت سطح اللنش لبقية اليوم لأن رائحة المازوت القوية هناك زادت في دواري ، مع ذلك كنت حريصاً على مرافقته ، ولم تفتني أية واحدة من سفراته الكثيرة ، وكلما كنت أستقل اللنش كان بابا يرحب بي مبتسماً وهو : « انني سعيد بوجودك هنا مرة اخرى ياگگ » .

كانت الاسماك تبدو رائعة ايضاً عندما نجلبها للساحل ونعلقها في صفوف طويلة ، وعلى الرغم من ان الألوان الخضراء والصفراء الزاهية تتلاشى من الدولفين بعد المـوت ، إلا ان أسماك « الواهو » السريعة العوم ككلاب الصيـد ـ تكون مـاتزال جميلة ورشيقـة ، وتبدو مستعدة على الدوام لسحب كل حبل الصنارة الطويل مرة اخرى بانطلاقة متواصلة لاتصدق . وكان الناس يتجمهرون حولنا للتفرج على صيدنا ، ويستفسرون عن أسماء الأسماك ، فيتكفل بابا بالاجابة على اسئلة كل واحد منهم بدماثة وصبر ، وانا أستمع اليه بعدما يكون قد أصبح بمقدوري أخيراً الوقوف على رصيف الميناء الصلد المدهش دون أن اخشىٰ الاصـابة بـدوار البحر .

وكان بوسعك ان تصطاد كافة انواع السمك في ساحل « كي وست » . ولقد كان بابا يحمل لفترة الرقم القياسي للاسماك الشراعية المصطادة في المحيط الأطلسي بالحبل والصنارة وهو (١١٩) پاون . وسأروي لكم قصصاً اخرى عن صيد السمك ، ولكنها ليست كثيرة على أية حال إذ تومض الذكريات والصور في ذهني وتختفي دون أن أفلح في الامساك بها .

وأتذكر انني كنت ألعب مع بابا لعبة الحرب الرائعة في الحديقة بعد عودته من الحرب الأهلية الاسبانية عام ١٩٣٧ . كان بابا قد جلب معه العاباً نارية ، لذلك فقد صنعنا جيوشاً خيالية تزحف نحو ساحة القتال مع إطلاقات المدافع ودخان البارود . وكم كانت رغبتي كبيرة في مرافقته الى اسبانيا عندما غادرنا الى هناك ، ولكن ذلك لم يحصل مع الاسف . وفي إحدىٰ المرات جلب لنا بعض الطواويس ، وكانت مراقبتي لذكورها وهي تفرد ذيولهـا في تراقصهـا لاغواء الاناث بمثابة تعريف فاتن باسرار الجنس . وأتذكر ايضاً انني قد أريته كتاب « الثور فردناند »[1] الذي كنت معجباً به وقتذاك . وأتذكر ان أبي قد قال وقتها : « لقد ربـح كتاب

---

(١١) من تاليف « وولت دزني » (Walt Disney) (١٩٠١ ـ ١٩٦٦) .

الأطفال هذا عشرة امثال « موت في الظهيرة » مع انني بذلت في « موت في الظهيرة » مجهوداً اكبر مما بذلت في اي كتاب آخر في حياتي . اما ذلك البهلوان الذي كتب فردناند فمن المحتمل انه قد انهاه في بحر شهر واحد فقط . »

زارنا يوماً السيد « ستكلير لويس » ربما المواساة بابا حول كتاب فرناند - وكان مخيفاً جداً لنا نحن الاطفال بسبب وجهه الذي يشبه راس الموت الاحمر المليء بالبقع . ولعله قد لاحظ الانطباع الكريه الذي ارتسم على وجهي عندما تعارفنا مع بعضنا على الرغم من انني بذلت مجهوداً مضاعفاً لإخفائه - لأنه لم يمكث عندنا طويلاً .

تطلّق أبواي عام ١٩٤٠ ، ونالت امي حق الاشراف على تربيتي انا وپاترك ، مع نفقة جزائية لأن بابا كان هو الطرف المذنب في القضية . ولست اتذكر الكثير عن فترة الطلاق ، عدا سماع الصراخ في الغرف الاخرى ، وضجيج صفق الابواب ، ورؤية امي وهي تخرج باكية من غرفة نومها - أي انه كان ، باختصار ، ذلك النوع « اللطيف » من الطلاق .

كان كل ذلك يخص عالم الكبار . وعلى الرغم من ان الامور في بيتنا كانت تبدو غير طبيعية الا انني كنت أشعر بانفصال غريب عنها . وبعد اختتام الحرب العائلية عندنا ، كان التغير الوحيد الذي طرأ هو أن أبي لم يعد يعيش معنا ، وبدلاً من رؤيته في فسحات قصيرة بين رحلاته الى افريقيا ، اسبانيا او الصين ، فقد ترتب لي أن اكون معه خلال كل صيف آت - ذلك الصيف اللعين بدون ماما أو آدا - حيثما كان مقامه ، في « بيميني » ، او في « صن فالي » أو « هافانا » . وفي الحقيقة فقد كان ذلك أفضل من ذي قبل .

« بيميني » Bimini

في الثلاثينات ، وقبل انفصال ابي عن أمي ، كنا نقصد بيميني أحياناً لقضـاء فصل الربيع وردحاً من الصيف هناك . وبيميني هي إحدى جزر البهاما الضيقة على مبعدة سبعة واربعين ميلاً شرق ميامي ، والكائنة على الحدود الشرقية لتيار الخليج . وبوسعك من أعلى نقطة في الجزيرة ان تشاهد ميامي وديدلند الضخمة المسطحة الى الغرب ، وساحلها الشهير بعجائزه المتلفعات بالفرو للاحتماء من برودة مكيفات الهواء وهن يتمايلن بكعـوب أحذيتهن الذهبية . وأحمد الله ان الارض كروية والا لأضطررنا الى رؤية كل ذلك من هناك .

يتغير لون مياه بيميني على مسافة مائتي ياردة عن الساحل من اللون الابيض الصافي اللامع قرب الساحل الى الأخضر المزرق ، لتصل اخيراً الى اللون الأزرق الغامق المستديم لتيار الخليج . كان بابا يعتبر ذلك التيار نهراً كبيراً عرضه ثلاثون ميلاً وعمقه ستمائة قامة يمتد من بحر « ساكاسو »[١٣] الى انكلترا جالباً الدفء والرخاء لكل شيء يمسه . ولقد كتب والدي يوماً ان الزوارق الهاڤانية ترمي أطناناً من القمامة في التيار يومياً دون ان يخلف ذلك أيما اثر على مبعدة خمسة أميال للتيار . البحر وحده يستطيع تحمل كل هذا الضغط . وعلمت من مصدر موثوق به مؤخراً ان قطعاً من القمامة يزيد وزنها على المائتين رطل قد نقلت بالزوارق لترمى هناك وهذا ما يشكل رقماً قياسياً .

وكلما يقع نظري على هذا التيار فانني افكر بما كتبه أبي واحاول تذكره مستعيداً ذكريات فترة يفاعتي في بيميني .

كانت العائلة بأكملها ـ امي واخي جاك (الذي كان في الرابعـة عشرة) وپـان (في التاسعة) وانا ومربيتي آدا ـ تنتقل الى هناك على متن طراد بابا المسمى « پيلار » . كان طول هذا الطراد الاسود اللون يناهز الاربعين قدماً وقد تم تصميمه « وفق مواصفات بابا» التي تعني ـ مثلما علمت حالاً ـ بأنه قد صمم للصيد وليس للمتعة ، ويعني هذا ـ كما علمت أيضاً ـ ان بابا قد بدد كل نقوده في ابتياع أفضل المكائن والحصول على أحسن مقعد صيد متوفـر آنذاك ، الأمر الذي لم يبق لديه مايكفي لجعل اليخت مريحاً لراكبيه . ولدى بلوغنا الجزيرة يتولى بابا ارساء طراده على رصيف فندق « كوپليت انكلترا » في الاوقات التي لايروم فيهـا

---

(١٣) منطقة هادئة نسبياً شمال المحيط الاطلسي وشمال شرق جزر الهند الغربية .

الخروج للصيد . وكانت « مسز دنكم » ـ وهي سيدة مرحة ونشيطة في العقد الثامن من العمر واحدى مخلفات الامبراطورية البريطانية ـ تمتلك ذلك الفندق ، وقد تكفلت دوماً بتقديم طعام مائدة فاخرة لنا .

ـ « إذهبوا حيثما شئتم ياأولاد ، فبوسعكم اكتشاف الكثير من الأشياء في بيميني ، ولن تضلوا الطريق هنا » . قال لنا ذلك بابا في احدى الصباحات ليفهمنا بأن الرجال الكبار وحدهم سيخرجون على متن الطراد في ذلك اليوم .

اتجهنا نحو الخط الفسيح للساحل المهجور في الشمال لالتقاط مايتيسر لنا من المحار ، وقذف الحصى المسطح على المياه الصافية ، ثم توقفنا لبناء قلاع مزينة أجمل من تلك التي كان يحلم ببنائها الصليبيون .

ـ « مانوع الأسماك التي سنستطيع اصطيادها في الغد ؟ » سأل پات وهو يحدق في المياه الزرقاء البعيدة .

ـ « كل الأنواع » أجاب جاك « اننا الآن في نهاية شهر مايس ، لذلك فانهم سيرمون الطعم الكبير لاصطياد أسماك التن الضخمة ، أما نحن فسنستخدم الصنارة الريشية ، وبمقدورنا في هذا الوقت من العام أن نمسك بالأسماك الصفراء و « البنتو » و « الباراكودا » و« الكربونا » والاسقمري و « الواهو » .

وبعد حين قال پات بنعومة : « آمل أن لايعمدوا الى إجلاسي على كرسي الصيد » .

ـ « لا أمل لك في هذا يا أخي الصغير ، ليس بعد تلك الطريقة التي أضعت بها عدة الصيد بأكملها ومعها ماقيمته خمسمائة دولار من حبال الصيد في العام الماضي . تأكد أنهم لن يسمحوا لك حتى بمجرد الاقتراب منه » .

ولم يحر پات جواباً إذ ماكان بمقدوره ان ينسىٰ تلك اللحظات عندما أجلسه الفتية الكبار على كرسي الصيد ليتناولوا طعام الغداء ، فضربت احدىٰ أسماك المرلين الصنارة التي كان ممسكاً بها فجاءت قوة الضربة من الشدة بحيث انها كادت ان تطوح به الى اليم لولم يترك الصنارة عفوياً مدركاً مبلغ قوة تلك السمكة ، وتاركاً عدة الصيد تذهب الى البحر .

ـ « ياللمسيح ! لقد أضعت العدة كلها » صرخ بابا ، كما كان رد فعل امي قوياً هو الآخر :

ـ « بحق السماء ، وهل كان لديه خيار أفضل من ذلك ياايرنست ؟ » .

كان انفعال بابا طبيعياً ازاء خسارة عدة الصيد مع الحبال ، ولابد أن ملاحظة امي تلك

كانت قد خطرت على باله حتى قبل ان ينهي كلامه ، وهكذا فقد عمد الى التخفيف من حدة التوتر ويكرر مراراً بأن پات ما كان ليستطيع عمل شيء آخر ، ولكن السيف كان قد سبق العذل ، فقد اصبحت عملية الصيد في ذهن پات عملاً للمستقبل ، ورياضة لايحسنها غير الراشدين من الرجال .

ـ « لايحسن بي ان أخرج معهم غداً ، الاتعتقد ذلك ياجاك ؟ » قلت ذلك اثناء سيرنا على امتداد الشاطىء ، فابتسم لي جاك بحنان وهو يتذكر كيف انني دائم الاصابة بدوار البحر عندما اكون على متن پيلاز وقال :

ـ « لعل البحر يكون هادئاً ياگگ » .

ـ « حسناً ، سأذهب إذن » .

ـ « ولعل بابا سيسمح لي بالجلوس على كرسي الصيد » قال جاك « فقد ناهـزت الآن الخامسة عشرة من العمر » .

ـ « لعله » قال پات .

وعلى الرغم من احلامنا وتطلعاتنا ، فقد بقي الصيد على متن پيلار حكراً على الكبـار فحسب ، ولكننا كنا مراقبين شغوفين . كان « مايك ليرنر » ـ الذي يمتلك مجموعة من محلات الازياء النسائية ـ هو الذي علّم بابا قواعد صيد أسماك التن ، وكان بابا يردد كثيراً النصيحة التي قدمها له مايك بهذا الشأن ...

« عليك ياايرنست ان ترفع هذه الاسماك بسرعة ، فما ان تبتلع الواحدة منها الصنارة حتى تندفع سريعاً نحو القاع وتموت هناك بفعل ضغط مياه الاعماق عليها ، وسيتوجب عليك عندئذ ان ترفع اربعمائة او ثمانمائة رطل من الثقل الميت من عمق يزيد على الالف والخمسمائة قدم ، غير ان المشكلة الحقيقية تكمن في ذلك العدد الكبير من القروش المتواجدة هناك . فما ان يجد القرش الاول سمكتك ويقضمها حتى تسيل الدماء منها بغزارة فتظهر لك عشرة قروش اخرى بلمح البصر تتولى سلخها وتلوّح برؤوسها وهي تسحب كتلاً كبيرة من اللحم ، وعندما تنتهي أخيراً من عملية ايصال سمكتك الى السطح فلن تجد أمامك شيئاً أكثر من ذيل ، وعظام جرداء ، ورأس . لم ينجح أي شخص هنا في الحصول على سمكة تن لم تمسسها القروش ابداً » .

في ذلك المساء ، وفي احدى الحانات ، سأل « بل ليدز » . وهو صياد وشريب ماهر ـ بابا عما كان يتحدث به الجميع منذ وصولنا :

- « هل تعتقد ان بامكانك الحصول على سمكة كاملة ياايرنست ؟ » .

- « أشك في إمكان ذلك يا « پل » ، ولكننا سنحاول تحقيق ذلك غداً »

وفي صباح اليوم التالي ارتدينا ملابسنا مبكرين ، وتهيأنا لتناول طعام الإفطار قبل الفجر لأن بابا كان يروم الابحار بعيداً عن الميناء قبل شروق الشمس .

بدأت الريح تعصف خلال الظلام ، وومضت مياه المحيط بالامواج البيضاء ونحن نشق عبابها باتجاه تيار الخليج ، ولكن ما كان بمقدورنا رؤية المياه وهي تغير ألوانها جراء تقافز زورقنا فوق الامواج .

ولم يكن پيلار قد زود وقتئذ بجسر معلق ، لذلك لم نستطع الصعود الى القمة لتفادي دخان المازوت ، وهكذا فقد اضطرتني الروائح المهيجة ونبضات المكائن المتواصلة تحت قدمي الى التوجه نحو العنبر السفلي حيث يوجد المقعد المخصص لي والكائن الى جنب الربان ، وكنت افضل الاصابة بالدوار على حرمان نفسي من المتعة ، ولكنك عندما تكون في الخامسة من العمر وعلى متن قارب يتماوج بشدة فانك ستواجه باستمرار خطر السقوط في لجة البحر ، وبعد ان اكون قد تقيأت مرة او مرتين يصبح دخول دورة المياة - على الرغم من ترابطاته المزعجة - مثل الاهتمام بصديق حميم ، وهكذا فلم يُقدر لي أن أرى شيئاً مما كان يجري في القسم الاعلى من الطراد طيلة ذلك اليوم الذي أمضيته بالنوم - فيما عدا طبعاً تلك الفترات التي أيقظوني خلالها كي أستطيع تناول طعامي - وهو عمل بدا لي في حينه أمراً قاسياً على الرغم من كون الغرض منه اظهار التعاطف مع حالتي ، ولقد عمد بابا الى إعادتي الى الساحل عندما أصابني الدوار في أول مناسبتين كي أستطيع استجماع قواي هناك ، ولكن ذلك الاجراء كان قميناً بالحط من كرامتي . لقد كان يداخلني شعور قوي بأن الفتية « الكبار » من أمثالي لايجب ان يسمحوا لأنفسهم باضاعة نصف يوم رائع من صيد الاسماك ، وهكذا فقد صممت على قهر هذه المشكلة ، واعتقد انني كنت أُحاول وقتها أن أُقلد رواقية أبي منذ تلك السن المبكرة .

وفي إحدى الامسيات استيقظت من نومي بعد وصولنا الميناء ، وعندما ترنحت على سطح الطراد ، وجدت الجميع مبتهجين لأمر ما . وأخيراً فقد تسنى لي اكتشاف سبب كل تلك الضجة حيث كان نصف سكان بيميني متجمهراً حول أكبر سمكة معلقة وقعت عليها عيني . كان طولها يناهز عشرة أقدام ، وتبدو أطول ثلاث مرات من أي من الاشخاص المتجمهرين حولها .

قدم الجميع تهانيهم لأبي ، وقال مايك بأن ذلك ليس مجرد انجاز هائل ، بل انه أمر سيعني الكثير لبيميني عندما يعلم بقية الصيادين بامكانية الحصول على أسماك التن كاملة هنا

دون ان يصيبها أي ضرر . لقد كان مايك العجوز الطيب شخصاً في منتهى الكرم ، وكان على استعداد دائم للسماح للغرباء بمشاركته جنته الخاصة لأجل عيون اهل الجزيرة ، وفي سبيل انتعاش « اقتصبادهم » .

إقتصادهم ! يالها من نكتة كبيرة ، اذ لم يكن قوام ذلك الاقتصاد غير الفنادق الثلاثة نصف الفارغة والتي تدار من ريع باراتها ، اما « بنك البهاما الكبير » فقد كان يديم أعماله صيادو الاسفنج ، وكان هناك أيضاً سوق الذرة المحلي ، وذلك العدد الكبير من الزنوج المرحين الجالسين للعب الدومينو ، والتواقين دوماً للمساعدة في اعمال تهيئة الطعم ووضعه على الصنارة . لقد كانت رؤوسهم منفوخة بالخطط للمستقبل ، ولكنهم ماكانوا قادرين على إتيان أي شيء في واقع الحال .

ولانعاش هذا الاقتصاد الباعث على الأسى ، ولأسباب عديدة اخرى لم يكن يعرفها أحد غيره ، فقد بدأ بابا باحياء نزالات للملاكمة مساء كل سبت من كل اسبوع ، وأعلن استعداده لتقديم جائزة قوامها مائة دولار لأي شخص من اهالي الجزيرة يستطيع الصمود أمامه ثلاث جولات . ومثلما أخبرني بابا ، فقد تقاطر على الجزيرة عمالقة زنوج جاءوا من أماكن بعيدة مثل « ناساو » بمجرد ذيوع ذلك الخبر في جزر البهاما . كان اولئك الرجال ينتظرون بابا على المرفأ لحين عودته من رحلات الصيد اليومية ، فيستقبله أحدهم قائلاً : « بودي أن أُنازلك هذا السبت ياسيد إيرنست » .

ربما كان ذلك صحيحاً ، او لعله كان صحيحاً بعض الشيء ، لأن بابا كان يؤثر « تحسين » أفضل القصص عندما يرويها . وهناك صورة في كتاب كارلوس بيكر عن سيرة والدي تريك اياه وهو يلاكم زنجياً متوسط الطول ، وعندما قابلت هذا الرجل عام ١٩٦٤ ـ أي بعد وفاة والدي بوقت قصير ـ فلم أجده أضخم جثة مني ، اذ لم يزد طوله على خمسة أقدام وتسع بوصات فحسب ، وبالطبع فاننا نعرف الآن بأن طول الانسان يتناقص تناقصاً طفيفاً مع الكبر بسبب انكماش وتقلص الفقرات السفلى بفعل ضغط الجذع عليها ، ولكن ليس الى تلك الدرجة التي تجعله ـ مع ماهو معروف عن صلابته ـ منافساً نداً لرجل مثل أبي طوله ستة أقدام ووزنه مائتي رطل . وأستطيع الآن تذكر تلك النزالات حيث الجمهور الكبير المحتشد حول الحلبة مساء يوم السبت ، وصوت المعلق المحلي وهو يعلن بدء النزال ويقدم الخصمين للنظارة قائلاً بانگليزية مكسرة :

« هنا ، في هذه الزاوية ، يقف الرجل ذو السروال الابيض . وزنه حوالي المائتين

والخمسين رطلاً . إنه بلاء البهاما ، المحارب الرهيب « بوب ! (تتعالى الهتافات له مع صراخات التشجيع المؤدبة « إكسر جذع هذا الافندي يابوب ») وفي هذه الزاوية ، بالسروال الأسود ، يقف الرجل الوحيد الفرد ، الذي لايتجاوز وزنة المائتي رطل ، والذي لم ينهزم في نزالاته العشرة الاخيرة لبطولة بيميني للوزن الثقيل ، هذا « البلايبوي » ، والمليونير ، والرياضي ، السيد ارنست هيمنغوي ! » يصخب الجمهور ويصرخ « اقتله ياسيد ايرنست ، اقتله ! إرسل هذا الزنجي الى ناساو على طبق من الجليد ! اقتله ! » .

يتقدم الملاكمان الى وسط الحلبة ويتصافحان بقفازاتهما ، ثم يبدأ النزال فيرسل أبي مستقيمة ، تليها ضربة قوية بقبضته اليسرى ، يعقبها مقلاع يميني ، فيرتبك بوب مندهشاً ويحاول تغطية وجهه ، فينهال عليه سيل من اللكمات اليمنى واليسرى ، ويقف الجمهور على أقدامه مصفراً ـ ياللسماء ، لقد كان بابا يقذف اللكمات بسرعة لم استطع ملاحقتها ـ ثم تأتي لكمة يمينية قوية على الفك فيسقط الزنجي على الحلبة .

« لقد سقط بوب سيداتي سادتي . هاهو المقاتل بوب وهو يستلقي على الخشبة ولا يبدو انه سيستطيع النهوض في الوقت المحدد » قال الحكم ذلك هو يرفع ذراعيه معلناً انتهاء النزال .

حسناً ، لقد بدا المشهد حقيقياً بالفعل ، ولكن هل هذا الذي اتذكره الآن يمثل الوقائع فعلاً أم انني اتخيلها فحسب ؟ ومثلما أتذكر فقد كانت الحلبة مرتفعة قليلاً عن الارض ، وتسبح في بحر من الضياء ، وكان هذا يكلف مبالغ هائلة ، ولم يكن هناك مامن شأنه حماية الحلبة الكائنة في العراء من أمطار بيميني سوى العناية الدقيقة المستمرة ، ولكن لم يكن يوجد هناك أي شيء في بيميني يجري الاهتمام به باستمرار ، وعندما أُحاول تدقيق ذكرياتي فان الصورة التي تلوح في مخيلتي تبدو مثل لوحة « جورج بيلوز » التي تصور الملاكم « فيربو » وهو يصرع « مبسي » بلكمة تقذفه على الحبال ، ولكن لاتركن ايها القاريء الى ذكريات فتى في الخامسة من عمره للكشف عن الحقيقة وراء الاسطورة ، إلا ان النزالات التي كانت جائزتها الكبرى مائة دولار قد جرت بالفعل ، ولقد تأكدت من ذلك بالتحري لدى العديد من الاشخاص الذين لم يكونوا صغار السن مثلي ، والذين شهدوها بأم أعينهم .

ولابد أنك تدرك بأنها كانت مسألة تثير التحدي في الجزيرة ، بل وفي كل جزر البهاما ، ان تستطيع صرع أي رجل قبل نهاية ثلاث جولات لكمية . وبالتأكيد فقد كان ذلك هو هيمنغواي ، بايرن القرن العشرين ، وهو يقوم بالتعويض عن إلباسه اردية البنات خلال العامين الاولين من عمره . لقد كان بابا يتشكى من رجولته أكثر مما ينبغي ، ولست انسى رد فعل « مارجوري

كنيان رولنكز » مؤلفة « الرضيع » التي زارت ابي في بيميني في هذا الصدد . لقد سارت الامور بينهما على أحسن مايرام ، ولكنها صارحت اخي جاك قبل ان تغادرنا بالقول :

« لم يُنكر رجل يمتلك كل هذه الموهبة العظيمة حساسيته باستمرار ويتظلم من رجولته وهو فحل تماماً ورحيب جداً ؟ لماذا يبدد وقته في منازلة الاخرين من الرجال اللاهين ، ويحاول اصطياد أضخم الاسماك والبلوغ بها الى السطح بأسرع مايمكن ، ويتسابق في احتساء الخمرة أكثر من اي شخص آخر ؟ انني اعرف أنه يحب الكتابة ، فلم لايكرس وقتاً أطول لها ؟ » .

كلامك صحيح بالتأكيد أيتها السيدة رولنكر . ، وبنسبة تسعين بالمائة ، غير أن بابا كان يكرس باستمرار اربع الى خمس ساعات في اليوم تقريباً للكتابة طيلة حياته . لم يكن يستطيع مواصلة الكتابة ثماني عشرة ساعة في اليوم لأن ذلك كان يرهقه كثيراً .

لقد دفعتني نزالات بيميني الى التساؤل : مامدىٰ إجادة أبي للملاكمة ؟ لقد كان كثيراً مايتطرق الى الحديث عن « تبريد » الأشخاص بلكمة واحدة ، والوقوف نداً إزاء ملاكم محترف من طراز « توم هيني » .

وبطبيعة الحال فقد كنت أعتبر كل تلك التصريحات حقائق مقدسة لأن بابا لم يكذب عليّ قط . كما ان بوسعك إسقاط العديد من الناس بلكمة واحدة لو أعطوك الفرصة لضربهم في المكان المناسب ، وبوسعك أيضاً ان تلاكم المحترفين وأن تنهي النزال بشكل سعيد لو قرر الملاكم المحترم مسايرتك ، فكل الملاكمين المحترفين الذين لاكمتهم لم يواجهوا صعوبة في التغلب علي لسبب أساسي هو أنني لم أكن نداً حقيقياً لهم ، ولأن القانون يعتبر قبضاتهم أسلحة قتالة .

كم كان أبي يحسن اللكم إذن ؟ حسناً ، انني لم اره شخصياً يضرب اي شخص أبداً ، اذا استثنينا انصاف الذكريات تلك عن بيميني ، ولكنني شاهدته وهو يتلاكم لأكثر من خمسين جولة ، وفي أوقات مختلفة ، مع رجل يدعى « جورج براون » ، ولم يكن بوسع اي شخص ضرب جورج براون إلا عندما يسمح هو بذلك ، ولما كان بمقدور أبي تسديد اللكمات الموجعة عندما تسنح له الفرصة في اقتناص هدف أمامه ، لذلك فلم يسمح له جورج براون بالنيل منه قط . لقد رأيت ابي يصيب قفازات جورج عدة مرات ، ولكنني لم اشهده وهو ينجح في لكم جسده أبداً .

لم يسمع سوىٰ القليل من الناس خارج دائرة الملاكمين باسم جورج براون ، ولكن

شهرته اسطورية في عالم الملاكمة ، وهو الذي أشرف على تدريب « هاي كريب » ـ الذي ربما كان اعظم ملاكم للوزن المتوسط في العالم لكل العصور ، كما أشرف أيضاً على تدريب « جين توني » لفترة من الوقت ، ولما كان السيد توني على قيد الحياة فان بمستطاعه ان يقول كلمته في مهارات جورج اللكمية .

يزن جورج ـ الذي كان أصلاً ملاكماً من وزن خفيف الثقيل ـ حوالي مائة وثمانين رطلاً الآن ، اي بزيادة خمسة أرطال على وزنه الاعتيادي ، وهو لم يدخن ابداً ، ولا يشرب غير الكوكتيلات في حفلات المجاملة ، ويسكن الآن في نيويورك ، ويتلاكم مع معارفه ، وان كان لايستخدم كل مهاراته في ذلك . ولقد كان هذا هو مافعله لمعرفته بكوني كثير التدخين ، فلم يجرح مشاعري بضربه لفتى مثلي يصغره بنصف عمره ، وكان بامكانه نيل بطولة العالم لوزن خفيف الثقيل ، ولكنه كان يعرف ان الناس يسلبون كل أموال الملاكمين ويقطعونهم كالشطائر ، وكان هو أذكى من ان يدع أمراً كهذا يحصل له ، وهكذا فقد انشأ « معهد جورج براون للرياضة » في شارع ٥٧ ، حيث يتولى مساعدة النساء على تخفيف وزنهن ، ويشبع غرور اصحاب الملايين بالسماح لهم بلكمة على بطنه ، وبمخاطبتهم بلقب « سير » وباصطناع الاحترام لهم .

عرف براون أبي جيداً ، وتلاكم معه ، ولعله كان يحبه ايضاً ، طيلة مايزيد على خمس وعشرين سنة ، وهو الذي تولى قيادة السيارة من « مايوكلنك » آخر مرة ، واستلقى نائماً في دار الضيافة عندما انطلقت تلك الرصاصة في صباح يوم الاحد ذاك . ولقد التقيت بجورج قبل فترة قصيرة ، وهاكم رأي شخص متخصص في قدرات ابي اللكمية كملاكم ومقاتل ، اذ ان هناك فرقاً بين الاثنين .

« لقد كان بمقدور أبيك أن يفوز بسهولة على كل اولئك العمالقة السود في بيميني باكريكوري ، اللهم إلا اذا كانوا قدتلقوا بعض الدروس في اصول الملاكمة ـ وهذا أمر غير محتمل ـ او أن أحدهم كان يمتلك موهبة طبيعية في القتال مثل « كريب » ، وهذا شيء لم يصادفه ابوك بطبيعة الحال . لقد كان أبوك في بيميني رجل العين الواحدة في مملكة العميان » .

« وعلى العكس من ابيك ، فلم اضطر مطلقاً الى تعليم « هاري كريب » اياً من فنون الملاكمة . كل ما علمته اياه هو محاولتي ابقاءه بلياقة بدنية مناسبة وابعاده عن النساء . فبدون إحكامك الرقابة عليه كلياً كان بوسع هاري اصطحاب فتاة الى غرفة المشجب قبل خوض نزال مصيري مباشرة ! كان كريب يحتوي خصمه احتواءً ـ على النحو الذي يفعله « جوفريزر » ـ

ولكنه كان ايضاً أكبر ملاكم قذر عاش على الارض ، اذ لم يكن يتورع عن استخدام كل شيء ، « العِكش » ، الركبة ، الرأس ، الابهام ... كل شيء » .

« وكان ابوك يعرف كل تلك الخدع القذرة ايضاً ، وكثيراً مالجأ الى استخدامها ضدي ، ولكنه كان ابطأ من ان يستطيع استثمارها على نحو فعال ، ولمعلوماتك فانه ليس بمستطاع اي شخص ان يتعلم الملاكمة او يستثمر الخدع القذرة مالم تكن لديه الادوات المناسبة لذلك ، واعني بذلك أن المرء لايستطيع تطبيق ماتعلمه ما لم يكن يمتلك تناغماً وانعكاسات ملائمة ، ولم يكن أبوك ليمتلك اياً منهما » .

« ولكنه كان « مقاتل بارات » جيد ، خصوصاً عندما تتاح له الفرصة لتوجيه الضربة الاولى ، فقد كان قوياً كالثور ، غير انه كان بطيئاً على الحلبة ، وبوسعي تزويدك بقائمة تحتوي المئات من « الملاكمين الاغنياء » ـ والذين ماكانوا بحاجة لممارسة الملاكمة كاحتراف ـ ممن كانوا قادرين على تحطيم ابيك تماماً » .

ربما كان قد نازل « توم هيني » فعلاً على شاطىء بيميني ، ولكنني واثق من ان « توم » قد سايره في نزاله ذاك ، فقد عرفته طوال سنين عديدة عندما كان يمتلك مشرباً في ميامي ، وهو انسان لطيف » .

« وبصراحة فان الذي اثارني في أبيك وجعلني اعجب به الى حد ما هو عناده في تطبيق خدعه عليّ حتى بعد ان عاقبته عقاباً قاسياً لمحاولته فعل ذلك ، إذ توجب علي ان اسقطه على إليته اربع مرات على الأقل . لقد كان يلجأ الى ركلي ، كما نجح مرة في انزال قبضته المطرقية على ام رأسي ، ياللمسيح ، لقد جرب كل مايعرفه عليّ ! » .

« وفي احدى المرات ، وبعد ان انتهينا من التلاكم في مركز التدريب التابع لي ، دخل ابوك غرفة الحمام وراح يقرأ الجريدة . ودخلت الغرفة بعد ان قد امضى فيها بعض الوقت ، ولقد استطعت ان اشاهده وانا في الباب عندما كوّر الجريدة وملأ بها قبضته ، فقلت في نفسي انه يعرف تلك الحيلة أيضاً . ثم جاءني ووضع إحدىٰ يديه على كتفي وقال : كيف الحال ياجورج ؟ وفي نفس الوقت فقد دس الجريدة في خاصرتي بقوة جعلتني افقد السيطرة على نفسي ، فسددت له لكمات قوية أسقطته ارضاً وارتطمت جمجمته بمسناة الغرفة ، ثم استدعيت أحد رباعي الوزن الثقيل الذين كانوا يتدربون في المعهد ، فحمله تحت الدش ، ولقد كنت مستاءً جداً لدرجة انني لم ألمسه إثر سقوطه على الارض » .

« ولقد كتب لي بعد ذلك بشهرين للحصول على تذاكر لإحدى النزالات التي كان يروم

مشاهدتها ولم يتطرق ابداً الى تلك الحادثة . وبعد ان مضت عدة شهور ، عاد مرة اخـرى لممارسة ماكان قد فشل في تطبيقه عليّ وأنا احاول منعه من ضربي بالمنـاورة ، وجعله يفقد توازنه ، وبالتهديد وغير ذلك ، أي محاولة إتعابه دون ان اسبب له اذى مثلما كنت اعمل مع غيره من السادة الأماجد » .

« وبالطبع فقد كان كلانا يعلم انه يؤثر الفوز ، مع انه لم يتوهم في تصور ان الواجب يحتم عليه الفوز في كل شيء . لقد كان يتقبل على الدوام كونك انت افضل منه في الرماية ، وان باترك يتفوق عليه في الرسم ، ولكنه كان يشعر برغبة طاغية للفوز في الملاكمة ، وكان اندفاعه في هذا من الشدة بحيث أفقده حكمته ، وجعله يتوهم ان بمقدوره الحاق الهزيمة ببطل سابق . ياللسخف ! هل تستطيع ان تتصورني مثلاً وانا أُباريه في مسابقة لكتابة القصة القصيرة ؟ لعل حديثي هذا قد ولد عندك انطباعاً بأنني لم أكن احب أباك وهو على الحلبة ان هذا صحيح فقد كان مثل الطفل المدلل وهو يلاكم ، وكان من الضروري تصحيح تصرفاته على الدوام » .

« أما خارج الحلبة ، وللشطر الأعظم من حياته ، فقد كان أبوك واحداً من الطف الناس الذين عرفتهم في حياتي » .

وبالطبع فقد كانت تجري هناك أحداث اخرى في بيميني غير دأب بابا على جعل الاهالي يترنحون بفعل لكماته . وكنت احب الذهاب للعب على الساحل الرملي الجميل مع آدا ، ومراقبة يخوت رجال المال وهي تلقي مراسيها بعيداً عن الساحل ، خصوصاً يخت « بل ليدز » الموسوم « موانا » ، الذي يبلغ طوله مائتي قدم ، والذي كان كبيراً جداً على ميناء صغير مثل بيميني .

كما وقد تناهت الى مسامعي الحكايات عن « كات كي » جزيرة رجال المال الكائنة جنوب ساحل البهاما بميلين ، والتي كان يقال ان الدخول اليها حكـراً على أصحـاب الملايـين مع اصدقائهم ، والتي لم أستطع مشاهدتها وقتذاك .

ولكنني زرت « كات كي » قبل حوالي سبعة أعـوام ، وتمتعت برؤيـة البيوت الجميلة هناك ، وطرازها الذي يذكرنا بجنوب فرنسا ، وعلى الرغم من انها كـانت كلها مشيـدة من الخشب ، الا انها كانت تصان بشكل ممتاز ، ولا يوجد غير عدد ضئيل من سدادات الشبابيك المعلقة التي تكسر جدار الصمت . اما الرجلان المستخدمان هناك ، فقد دأبا على الاعتنـاء بساحة « الكولف » ذات الحفر الثماني بسقيها وتمشيطها ، وبوسعك ان تتوقع في أية لحظة خروج حبيبين شابين ـ الرجل وهو يرتدي بنطالاً أبيض وسترة زرقاء فضفاضة ، والسيدة الجميلة بتنورة حتى الركبة وبتسريحة شعر « دوقة وندسر » ـ يتمشيان مـرحين يد اهما

متشابكتان خارج احدى تلك البيوت ، وهما سعيدان وساحران وغير مباليين على النحو الذي لايتأتى الا لأولئك الناس من ذوي الثراء الفاحش .

ولكن اهل الثراء هجروا الآن « كات كي » أو ماتوا ، أما احفادهم فقد اكتشفوا اماكن اكثر جاذبية تاركين تلك البيوت الرائعة مع ان ارتيادهم لها ينقص الضرائب التي يتوجب عليهم دفعها للحكومة . وتستطيع الان ان تشتري الجزيرة بأكملها مع بيوتها بزهاء مليوني دولار ، هذا اذا كنت تمتلك المال اللازم ، والرغبة في العيش وحيداً وبعيداً عن الناس .

وكلما افكر في بيميني يكون « مايك ليرنر » أحسن من اتذكرهم من الرجال بعد بابا . لم افكر بمايك ابداً كرجل من اصحاب الملايين ، بل كصياد ماهر وان كان يمتلك الصفتين معاً . ولقد التقيته مرة اخرى عام ١٩٦٤ في بيميني وكان جالساً في غرفة اسدلت ستائرها حتى في منتصف النهار .

ومع انني كنت قد زرت الجزيرة عدة مرات في مناسبات سابقة ، الا انني لم اصادف « مايك » في اية مناسبة منها ، غير انه كان بمستطاع المرء ان يلاحظ مبلغ حبه واهتمامه بذلك المكان في اية بقعة يقع عليها نظرك ، فقد كان هناك بيت ليرنر المهجور بغير رعاية والذي مازال اجمل بيت في الجزيرة ، وكانت هناك ايضاً « مختبرات ليرنر للابحاث البحرية » والتي تجري فيها الآن دراسات اصيلة عن سرطان الاسماك وعلاقته بمرض السرطان عند البشر من قبل علماء الفيرولوجيا[١٣] من جامعة ميامي ، ومنهم دكتور « بنجامين سايكل » (هل تعلم بـان الاسماك يمكن ان تصاب بمرض السرطان ؟ اعترف انني لم اكن اعرف هذه الحقيقة قبل ان يطلعني عليها دكتور سايكل) .

ولكن دعنا نعود الى مايك ليرنر في تلك الغرفة المظلمة كالموت ونتذكر الازمنة السعيدة . قال لي مايك : « هناك الكثير مما استطيع البوح به عن أبيك ياگريگوري ، لكم استمعنا سوية في تلك الأيام الخوالي ! لقد صمدنا مرة معاً بوجه الاعصار سنة خمس وثلاثين او ست وثلاثين حينما روى لي ايرنست قصصاً رائعة جعلتني أتناسى خوفي في الوقت الذي كانت فيه الرياح تعصف بأرجاء البيت . لقد كنت موقناً من انه ـ مع جموح خياله ـ كان خائفاً مثلي ؛ ولابد انه كان قد تذكر النكبة الكبيرة التي لحقت بـ « مايتكم كي » خلال الاربع والثلاثين والتي اودت بحياة كافة اولئك المستجمين الاغنياء على السواحل في معسكراتهم ، ولضيق الوقت ، ولعلمي

---

(١٣) علم دراسة الفيروسات (Virology)

باضطرارك الى اخذ طائرة العودة بعد وقت قصير الى ميامي ، لذلك دعني القي على مسامعك هذه الحكاية فحسب :

« كان ابوك قد أفلس في الاربع والثلاثين او الخمس والثلاثين بعد ان أمضى وقتاً طويلاً يعمل في روايته « موت في الظهيرة » والتي لم تكن قد بيعت بعد وبالطبع ، فقد كانت امك تمتلك الكثير من المال ، غير ان ايرنست لم يشأ استعارة شيء منها الا عندما يصبح ذلك أمراً لامفر منه ، ولقد كنت أعلم بافلاسه لذلك فقد فكرت بوسيلة ما لمساعدته » .

« ففي صباح أحد الأيام قلت له : ياايرنست ، لقد عثرت على أسهم ممتازة من ذلك النوع الذي لم يفلح صبية وول ستريت الى الاهتداء اليه بعد ، فقد كتب لي مدير الشركة تواً ليخبرني بأنهم سيعلنون خلال الاسبوعين القادمين عن اكتشاف النفط في أرض تمتلكها شركتهم ، وسترتفع قيم أسهم شركة « تيبوت دوم » - أو مهما كان اسمها - مثل نافورة النفط المتدفقة بمجرد نشر ذلك الاعلان في الصحف ، لذلك فسأقوم بشراء مائة سهم لك اذا توفرت لديك بعض الأموال التي لاحاجة لك بها » .

« وقد سر أبوك بهذا الخبر وحصل على خمسمائة دولار من امك ، واستطعت أنا أن اعيد له شيكاً بمبلغ خمسة آلاف دولار بعد ذلك بثلاثة اسابيع فقط ، حيث زادت قيمة تلك الأسهم عشرة أضعاف بعد ان قام مدير الشركة باعلان تصريحه ذاك » .

كان مايك يبتسم الآن وهو يتذكر تلك القصة وقد امتلأت عيناه بالحياة ، ثم قال :

« وبالطبع فلم تكن هناك أية اسهم ياكريكوري ، عدا تلك الأسهم النفطية البغيضة العائدة لي ، والتي لم ترتفع قيمتها مطلقاً ، والتي تخلصت منها كي أحصل على الخمسة آلاف دولار لأبيك ! » .

لقد كان بابا معادياً للسامية « يبغض اليهود » ولكنه كان يتمتع بغريزة انتقاء الاصدقاء الذين يثبتون انهم الاستثناءات لتلك القاعدة .

صن ڤالي (وادي الشمس) Sun Valley

لقد امتلكنا تفويضاً مطلقاً في صن ڤالي خلال فصلي الصيف والخريف من عام ١٩٤٠ ـ وكان ذلك أول صيف قضيناه مع بابا بعد أن طلقته أمي . فبموجب الترتيب الذي أخرجه ابي مع الشركة المالكة للمصيف « اتحاد الباسفيكي » تقرر ان يعيش أبي وعائلته في صن ڤالي ، ومن ذلك المكان كان بامكان سكك الحديد نقل انباء تواجده هناك الى الاوساط الادبية في العالم ، وكان يمكن التقاط الصور له وهو يمارس هواياته الرياضية المختلفة ، وبمقابل هذه الدعاية للمكان فقد كان يجري توفير كل شيء نحتاج اليه في البيت .

« ما عليك إلا ان توقع على كل ما ترغب الحصول عليه كي يتسنى لهم الاحتفاظ به لأغراض مايسمى بالسجلات . وقع على ماتريد فقط » وما زلت اتذكر الندم على التوقيع . اذا كان كل شيء بالمجان فلم يتوجب عليّ ان أوقع بحق الجحيم ؟ لقد كنت بطيئاً في تعلم القراءة ، كما كانت عملية كتابة اسمي ماتزال صعبة عليّ وأنا في التاسعة من عمري ، غير انني اكتشفت بعدئذ المتعة التي تكمن في التوقيع ، كما تحسن خطي .

كان بابا يعمل جاهداً لانهاء « لمن تقرع الأجراس » ، كما انشغل اخوتي بالفعاليات الاخرى التي يجد الفتية الكبار متعة فيها ، وهكذا فقد بقيت وحيداً معظم الوقت . وفي معظم الاحيان كنت أستيقظ متأخراً بعض الشيء في الصباح إثر احتسائي ثمالة كؤوس الكبار ليلاً . وكنت أسكن « نزل تشالنجر » الذي كان أقل أناقـة من « اللوج » ـ حيث يقيم والدي مع بطانته وزوجته مارتي ـ الا أنني لم اكن مجبراً على تناول طعام الفطور في مطعم النزل ، ولذلك فقد اعتدت ان أفطر في « مطعم رام » الأغلى ، والذي يؤمه ضيوف اللوج عادة ، وكان بامكاني هناك أن أطلب سمكة طازجة ، أو بيضاً مقلياً ، كما كنت ألتقط بعض الأرغفة من على المنضدة وأخرج ساعة لاطعام البط البري الذي كان يعيش في البركة الكائنة الى جانب المطعم .

وكـان البط يبـدو متشابهـاً في باديء الامـر ، الذكور بـرؤوسـها الخضـراء والاناث السمراوات ، الا انني تعلمت بعد حين كيفية التمييز بينها ، بل ولقد استنبطت أسماء لبعضها مثل « الهزاز » و « السمراء » ، وهكذا فقد أخذ البط يعرفني ويتقدم نحوي عندما أدعوه . ولم يكن هناك في صن ڤالي سوى القليل من الأولاد ممن هم بعمري ، إذ كانوا يحلون ويرتحلون بسرعة دون أن يتسنى لنا التعرف عليهم ، ولقد كان البط في الواقع رفيقي الوحيد في اللعب ، وبعد ذلك بساعة كان يفتتح محل البولنگ فارتاده لالعب هناك قليلاً ، ثم اتوجه بعد ذلك للعوم في

المسبح الدائري المسخن ذي الجدران الزجاجية . كان البخار يرتفع من على صفحة المياه ويحوم حوله كغمامات كبيرة ، وبدا المكان وكأنه شيء يحلم به الانسان ، مثل العالم الاسفل لنهر ستكس .(١٤)

وبعد السباحة كنت أحصل على مساج ، ثم اذهب لأخذ دروس في الصيد بالتزلج تحت إشراف رجل كانوا يلقبونه بـ « العقيد الصغير » ـ وهو رجل بدين وقميء له لحية تشبه لحى الماعز ـ وكان يقف وراءك وهو يلقنك كيفية التسديد وتوقيت الضغط على الزناد ، ولقد كان رامياً ممتازاً وان كان معلماً فاشلاً ، إذ لم تكن لتستطيع إصابة أي شيء دون ان يكون هو خلفك .

وكان يمكن أن ينتهي صباحي في المزلجة المفتوحة حيث تقوم النسخة المحلية لـ « سونيا هينيه » بامساكي قريباً منها وهي تقودني بين الأشخاص ، ولما كانت شهيتي قد اصبحت ممتازة ، لذلك فقد كنت أعود بعد ذلك الى مطعم رام لتناول شرائح اللحم او سيقان الضفادع او فروج غينيا المقدم باحتفال كبير ، وإن لم يكن يثيرني شيء مثل « الشيش كباب » .

بعد الغداء كنت أُعاود إطعام البط ، ثم كان بامكاني الذهاب لصيد السمك في البحيرة الاصطناعية المحلية التي كانت متخمة على الدوام بسمك التروتة الصغير الغر والمستعد على الدوام لابتلاع أي طعم . وأخيراً فقد كنت أجول في الاصطبلات ، وامتطى الجياد مع بابا ومارتي قبل تناول طعام العشاء .

وقد توجب عليّ أن التزم جانب الحذر كلما تواجدت مارتي في الجوار لأنها كانت تقوم مقام والدتي ، وتشعر بأن الواجب يحتم عليها فرض الانضباط علي ، وقد لاحظت ذلك عندما وقعت على طلب ما أمامها فلم تستحسن ذلك أبداً ، الأمر الذي اضطرني الى طلب أطباق متواضعة كلما تناولت الطعام بمعيتها .

غير انني كنت على استعداد دائم لأن أحرم نفسي من الوجبات الشهية مقابل إتاحة الفرصة لنفسي للتواجد قرب مارتي التي كانت امرأة جميلة عام ١٩٤٠ ، ويدهشني أنها الآن أجمل من ذي قبل . كان شعرها عسلياً أشقر وقد قُص حتى كتفيها ، وكانت معتادة على التطويح به عندما تتحدث وكأنها مهرة تلوّح بعرفها في المروج ، ولم أعد اتذكر لون عينيها ولكنهما كانتا دافئتين وخبيثتين في نفس الوقت ، كما كانتا تتلألآن كلما أشرق وجهها

Styx وهو في الاساطير الاغريقية نهر في العالم الاسفل يجري نقل ارواح الموتى عبره من قبل النوتي (كيرن) وبقربه تقوم الآلهة باداء القسم الاكبر .

بالابتسام . أما بشرتها فتتماثل مع بشرة إنكريد بيركمان ـ طازجة وصافية تتفجر صحة ونقاءً .

وكانت قادرة على التحدث في كل شيء ـ أو لاشيء حسبما تشاء ، وكانت قد سافرت الى اسبانيا والصين ، والى كل مكان مثلما يبدو ، وكانت تتحدث معك كندٍ لها ، وتصغي لآرائك ذات الأعوام التسعة ، وتبدو انها تقيم لها وزناً على الاقل ، (وعندما قابلتها في بوسطن قبل تسعة أعوام كانت ماتزال رائعة مع انها قد شارفت على الستين في وقتها ، وأعترف بأنني قد فكرت للحظة بمحاولة ان اجعل من أبي ديوثاً بعد مماته باغواء زوجته السابقة ، وعلى أية حال ، فقد كان من غير الممكن ايلامه بعد مماته ، كما كنا نتشارك على الدوام بكل شيء ، ولكن الفكرة السخيفة هذه كانت ستحمل مارتي بالتأكيد على القهقهة بتلك الطريقة الخليعة الرائعة والنقية في نفس الوقت ـ انني أفتقدك أيضاً يامارتي) .

يتعين علي الآن ان أعود ثانية الى صيف وخريف عـام ١٩٤٠ . كان مجمـوع قائمة المصاريف لتوقيعاتي خلال الشهر الأول من إقامتي هناك يناهز الستمائة دولار . إستدعاني بابا الى غرفته فتملكني الخوف ، مع انه كان لطيفاً معي على الدوام ، غير ان حجمه كان كافياً بحد ذاته لاثارة مخاوفي .

« لم يسبق لي أن علمتك شيئاً عن قيمة النقود ياكگ . إنها ، مبدئياً ، لاقيمة لها ، ولكنها تسمح لك بشراء أشياء كثيرة تستمتع بها ، وعندما توقع على الاشياء التي تريدها هنا ، فان الأمر يُشبه القروش والدراهم التي انفحك اياها كمصروف جيب . ولاننا لن نكون دائماً بمثل هذه البحبوحة ، لذا فان رجائي اليك هو ان تستمتع بها فعلاً طالما أتيح لك ذلك » .

« انني لا أزعم ان هذا سيفسد عليك الأمر نهائياً ، أو انه سيدمر مفهومك عن القيم ، اذ سيكون بمستطاعك قريباً جداً ان تكتشف لنفسك مبلغ الصعوبة التي ستعاني للحصول على المال ، وعندما تكبر وتتعلم الحساب ، فانك سترعىٰ عندئذ مابحوزتك من أموال » .

ثم عرج أبي على المسألة التي بعث علي من أجلها :

« إن ذلك الرجل اللطيف ، السيد « أندرسن » ، الذي يدير هذا المكان منزعج قليلاً » . قال بابا « فهو يقول بأنك قد ضربت رقماً قياسياً في التبذير لشهر واحد بالنسبة الى طفل بمثل سنك ، فحتى ابن « آغا خان » نفسه لم تزد مصروفاته على المائتي دولار خلال الشهر الذي مكث فيه هنا » .

ثم ضحك بابا ، واضاف بصوت أكثر جدية : « قد نضطر الى ترك هذا المكان إن بقيت تبذر على هذا المنوال » .

ووجمت ـ فمن الذي سيتولى إطعام البط اذن ؟ .

« لم يقل السيد أندرسن باننا يجب ان نغادر هذا المكان فوراً ، ولكنه طلب مني ان اكلمك في الموضوع . حاول ان تخفض من عدد تواقيعك ، وكف عن طلب الاشياء الباذخة ، وقلل من دروس التزلج ، فسوف يبدأ قريباً موسم صيد البط والدراج ، وساصطحبك معي عندما نذهب للصيد ، وسيعوضك ذلك عن رماية التزلج التي سيتعين علينا الاقلاع عنها ، وفي الواقع فان إصابة الطيور الحقيقية رياضة أمتع منها بكثير » .

« وباستطاعتك ان تتناول كل ما يروق لك تقريباً ، ولكن ينبغي عليك أن تكف عن طلب الفروج الغيني ، أو اللحم المشوي على العيدان ، أما السباحة والبولنگ فلا بـأس بهما ، وبوسعك الاصطياد وركوب الخيل مثلما تشاء ، ولكن هوِّن عليك ياولد فانت لاترغب طبعاً في احراج العائلة والتسبب في طردنا من هنا ، اليس كذلك ؟ » .

وهكذا فقد خففت من مصروفاتي ، ولم تتجاوز قائمتي الثلثمائة دولار في الشهر التالي ، وعلى الرغم من ان بابا لم يكن مرتاحاً تماماً من ذلك ، غير انه كان على استعداد دائم لملاحظة علامات التحسن ، وكان ذلك يعني انني قد بت قادراً ، ليس على إعالة البط فحسب ، بل وكذلك حماية أهلي من العار المستديم .

بدأ صيد البط في الخريف ، ولما كان بابا قد اتفق مع والدتي على السماح لي بالتغيب عن المدرسة لبضعة أسابيع ، لذلك فقد تسنىٰ لي البقاء للتمتع ببعض الصيد .

ولقد بدا الأمر غريباً لأول وهلة ، فقد كان البط الميت يشبه كثيراً أصدقائي من البط الأليف ، عدا تسربله بالدماء وفقدانه القدرة على الحراك او الطقطقة ، ولكنني كنت أتجنب الربط بين الاثنين .

ولم يُسمعني بابا أية محاضرات عن منحه « هدية الموت » وغير ذلك من الهراء الذي أسمعنا إياه في سني عمره الأخيرة ، عندما أصبح مريضاً ومتعباً الى الدرجة التي بدا له الموت في حينها بمثابة هدية مرغوبة . الشيء الوحيد الذي أتذكره ، هو نصيحته عندما التقطنا بطة جريحة « اقطعوا رقبتها بسرعة كي لاتتألم » .

ولقد شغفت بالصيد منذ وقت مبكر ، واستمر شغفي به عندما سافـرت الى أفريقيـا بعدئذ . كنت مثل تلك الشخصية في قصة « حياة فرانز ماكومبر القصيرة السعيدة » التي كانت دائمة الاستعداد لقتل أي شيء وكل شيء ، ولكنني شفيت من ذلك الآن ، فبوسعي أن أتحسس الحياة في هذا اليوم حتىٰ عند الأشجار المسنة ، وأرتجف لرؤية شجرة نزع اللحاء منها فادرك

موتها المحتم ، ولعل نعمة الموت تكمن في الاقتراب من حده .

وكان يرافقنا في الصيد أُناس من كل نـوع في ذلك الخريف ، وكـان « گاري كـوپر » الشخص الذي أثار إعجابي أكثر من غيره . كنت قد شاهدت معظم افلامه ، ولم تكن شخصيته الحقيقية لتختلف عن شخصيته في أفلامه ، اذ كان وسيماً بشكل لايصدق ورقيقاً ودمثاً ونبيلاً بأصالة حقيقية .

واتذكر اننا ، بعد ان فرغنا من الصيد يوماً ، جلسنا في محل عام ، فشاهدت إحدى النسوة المسنات « كوپ » وعرفته فطلبت منه اوتوغرافاً وهي تقول :

ـ « انا شغوفة بأفلامك كلها .. هل تعرف السبب ؟ لأنك تبدو متشابهاً فيها جميعاً ! » .

فابتسم كوپ لها ووقع وهو يقول : « شكراً لك ياسيدتي » .

ومن المؤكد انك عندما يقال لك بأن تمثيلك لايتغير من فيلم لآخر فان ذلك لن يقع في نفسك موقع الاطراء ، ولقد كان بابا يقسم بأن كوپ لم يفطن في حينه الى التقريع المبطن وراء جملة تلك المرأة العجوز ، ولكنني أشك في صحة ذلك ، كما ردد أبي تلك القصة على مسامع أصدقائه في عدة مناسبات ، ولكن ليس امام كوپ ، وليس بدافع الخبث ، إذ كان بابا في تلك الايام أبعد الناس عن الخبث .

وكان بابا يتبادل الاحاديث الطويلة مع كوپ على مائدة طعام الغداء خلال سفراتنا لصيد الطيور ، وكان أغلبها يدور حول الصيد وهوليوود ، وعـلى الرغم من غياب الرابـط الفكري بينهما ، الا ان الطيبة والتعاطف كانا سائدين بينهما ، وكنت تستطيع إدراك مبلغ أنسهما ببعض من رنين صوتيهما والابتسامات المتراقصة على أعينهما ، ومما زاد في فتنة حديثهما عدم وجود أي مستمع يراد التأثير عليه بالكلام ـ عدا زوجتيهما وأطفالهما ، ومـع أن مثل هـذا الحديث يبدو خبيثاً الآن ، ولكنهما كانا ممثلين كبيرين في الحقيقة (نعم ، لقد كان بابا ممثلاً أيضاً) قاما ـ بوعي أو بدون وعي ـ بتقمص زائف لصورتين من أنجح صور الاطفال في قرننا هذا ، ولم تحصل بينهما أية منافسة إذ لم يكن هناك مايسوغ إثارتهمـا وكلاهمـا في القمة وقتذاك .

وعلى الرغم من انني كنت لم ازل طفلاً يافعاً ، غير انني لم أشعر وقتها بكون كوپ رجلاً كئيباً مثلما يدعي العديد من معارفه ، كما لم يداخلني أي إحساس بأنه « شخص عظيم » او « مجرد شاب وسيم غير متميز ذهب الى هوليوود » وعلينا ان نتذكر بأنه كان ابن رئيس المحكمة العليا في « مونتانا » ، وانه قد تتلمـذ في الشرق ، وعنـدما اتمعن بلكنتـه العاميـة (والتي

لاأستطيع القول بانها كانت متكلفة) أشعر بانه كان شخصاً لطيف المعشر .

كان كوب رامياً ممتازاً بالبندقية ، بمهارة ابي او ربما افضل ، ولكن الخصال التي جعلت منه شخصية عظيمة ـ قوته المتعمدة واعتداله ـ جعلته في نفس الوقت رامياً بطيئاً وكان أبي يشبهه في ذلك وان كانت مشكلته تكمن ، فيما أظن ، في ضعف بصره ، اذ كان يحتاج وقتاً طويلاً قبل ان يستطيع التقاط طير بنظره ، وهكذا فقد كان يصنع طرائد صعبة من أهداف سهلة ـ مثل حارس المرمى الذي يتأخر في الانقضاض على الكرة مما يتطلب قفزة مضاعفة للحاق بها ، في حين ان المطلوب كان مجرد حسن التوقيت .

وكانت إنكريد برگمان هناك أيضاً . كنت قد نشأت كاثوليكياً على مذهب امي ، وقد التقطت عيناي الآنسة برگمان لأول مرة في حفل قداس اقيم في احد الآحاد اثناء الخريف حيث كانت جالسة في مقدمة الكنيسة ، ولم استطع وقتها مشاهدة وجهها ، غير انني لاحظت امتداد ذراعها ـ برشاقة راقصة الباليه ـ بين إثنين من العباد لتلقي بهبة في السلة ، ولقد انتظرت حتى انتهاء القداس كي امتع عيني برؤيتها عن كثب . كان وجهها مضيئاً ، بل ومشعاً في الواقع وكنت قد شاهدت لها قبل ذلك فيلم « اللحن الفاصل » في حفلة اقيمت خصيصاً لأبي ، ولكنها بدت الآن أجمل بخمس مرات مما كانت عليه في ذلك الفيلم .

يشهد لبعض النسوة انهن يسببن حالة من الجنون المؤقت لدى المعجبين بهن ، اما مع إنكريد فقد كان الجنون المولد مستديماً . وللأسف فقد كان من المستحيل الاقتراب منها اذ كانت محاطة على الدوام من قبل رجال من أمثال « هوارد هوكس » و « گاري كوپر » وبابا . وكان من المسلي رؤيتهم وهم يجعلون أنفسهم أُضحوكة بحضورها ، ولا أقصد أنها لم تكن امرأة ذكية ـ لم تسنح لي الفرصة للتحدث إليها أبداً ـ ولكنها كثيراً ماكانت تتفوه بعبارات تافهة نحو : « لقد اعتدت دوماً على حمل زوج إضافي من الجوارب في حقيبتي لانكم لاتنفكون عن فتح الثقوب فيها ؛ وأين لي بزوج من الجوارب في منتصف الليل ؟ » فيبادر أبي ـ الذي كان اهتمامه الوحيد بملابسها الداخلية ينصب في خلعها عن جسدها ـ الى التأمين على حديثها بالقول : « فعلاً يا إنكريد ، انه لشيء عملي جداً هذا الذي به تقومين ، فهو يثبت امتلاكك لرجاحة عقل حقيقية يابنيتي ! »

ثم يقوم الجميع بمعاودة التحديق فيها حتى تفتح فاها ثانية .

وكان زوجها « پيتر لاند ستروم » يواجه وقتاً عصيباً وقتذاك ، فعلى الرغم من دماثة خلقه الرائعة إلا ان احداً لم يكن ليوله اي اهتمام ، بل كانوا يكنونه بـ « السيد بيرگمان »

خلف ظهره . كان متخصصاً بجراحة الاعصاب ولعله كان أعلى قيمة وموهبة من حشد بقية الرجال كلهم مرة واحدة ، وكانت له ابتسامة دافئة ويحب التحدث مع الأطفال ، ربما بسبب شعوره بالوحدة نتيجة عدم استطاعته الاقتراب من زوجته . وبالنسبة لي فانني افضل أن افكر به كرجل لطيف ، مثل كوب تماماً .

وبعد ان انتهىٰ الخريف ، فقد توجب علي ان أعود الىٰ كي - وست ، الى الحرارة ، الى امي ، والى المدرسة . ولست اظن ان ذلك الصيف قد افسدني تماماً ، ولكنه جعل العديد من الاشياء الاخرى تبدو كئيبة بالمقارنة .

هافانا Havana

إنتقل ابي للعيش في كوبا بعد انفصاله عن امي وزواجه باخرى . واستطاعت « مارتي » ان تجد بيتاً قديماً ممتازاً خارج هافانا بحوالي تسعة اميال يقع ضمن مساحة عشرين « أيكر » من أجمل الاراضي التي تقع عليها عين . كانت أشجار المنجة تحف بالشارع المؤدي الى البيت ، وتشمخ أشجار النخيل الملكية على جانبي الطريق النازلة نحو حوض السباحة الكائن خلف البيت ، وكانت الازاهير والكروم تتفتح في كل مكان ، وتقوم الطيور بنسج اعشاشها الرشيقة المربعة وسط الدغل المداري ، وكان بوسعي مراقبة الطيور الامهات وهي تحتضن بيوضها ساعات متواصلة . ولقد كان ذلك أحد أجمل المناظر التي رأيتها طوال حياتي ، وكان البيت الاسباني الطراز ذي الطابق الواحد يقبع لوحده فوق أعلى بقعة من الارض في كل المنطقة ، وكنت تستطيع أن تشاهد منه منظر الأضوية الجميل لهافانا . وكان يدعى « فنكا فيخيا » أو « المزرعة المطلة » وكنا نسميه « فنكا » فحسب .

ولقد بدا من الصعب تصور ان بمقدور أي امرىء انتاج اي شيء في مكان كهذا . ولعدة اعوام زرت خلالها هافانا لم افكر بأبي أبداً ككاتب يمارس عمله هناك . كنت أعرف انه قد كتب قصصاً في الماضي - عندما كان وقتها « همنغواي الكاتب » ولكنني لم اشاهده أبداً وهو يكتب ، وكانت لي شكوكي الخاصة حيال هذا الامر والتي تمتزج مع « عبادة البطل » . وعلى الرغم من محاولتي كبحها مااستطعت الى ذلك سبيلاً ولكنها بقيت تتسلل الى السطح . هل كان بابا محتالاً ؟ لقد كان دائب الحديث عن أعماله ، ولكن متى كان ينجزها ؟

كنت أستيقظ حوالي الساعة الثامنة والنصف خلال تلك العطل الصيفية ، واتناول طعام الافطار بكسل ثم أستحم . وعندما اتوجه الى البيت الكبير في حوالي الساعة العاشرة ، كنت التقي بابا وهو يلقي عليّ تحية الصباح بحبور .

- « ماالذي تريد عمله اليوم ياكك ؟ اننا لم نخطط لأي شيء بعد . ربما سنتناول طعام الغداء في فلوريدا ، ثم نصطاد بعض الحمام على سبيل التمرين مساءً . لقد مر بنا « كريكوريو » ليخبرنا بأن الجو لايساعد على الصيد ، وعندما يقول كريكريو ذلك فان هذا يعني ان الرياح قد بدأت تهب بقوة ، وان البحر سيكون مائجاً طوال الوقت . فكر في هذا أولاً كي يستقر رأينا بعد ذلك على امر مؤكد » .

« ولعل من الاوفق ان نأخذ قسطاً من الراحة اليوم » كان يقول وهو ينظر الي عن كثب ويبدي قلقه : « لاتبدو متعافياً تماماً ، هل هناك مايعكر عليك صفوك ياولدي العجوز ؟ » .

- « إنني قلق يابابا ، أحس وكأنني أغثي » .

- « سأعد لك برنامجاً ترفيهياً رائعاً لابد أنك قد تأثرت من إسرافك في تناول الخمرة » ولم يكن منزعجاً لسماحه لي بأن اشرب بقدر ماأريد منذ ان بلغت العاشرة او الحادية عشرة من العمر إذ كان واثقاً من اقتداري على وضع حدود لنفسي .

- « لعلك بحاجة الى الاقلاع عن الشراب ، ولكنك غير قادر على ذلك هه ؟ » ثم ارتفع صوته بجدية مضحكة وقال : « آن الاوان لاتخاذ التدابير اللازمة لحفظ النظام وفرض الانضباط ، إذ ليس بمقدوري إعادتك الى امك في نهاية الصيف وقد تحولت الى سكير دنف ! » كنا وقتها قد اعتدنا على مواصلة الشرب حتى ساعة متأخرة من الليل ، لذلك فقد كنت اشعر بأن قدرتي على النهوض في الساعة الثامنة والنصف صباحاً تعتبر امراً مرضياً بعد عقابيل سهرة البارحة على الرغم من ملازمة الدوار لي ، أما بابا فقد كان يبدو دائماً متفجراً في الصباح كما لو كان قد نام نوم الاطفال في غرفة ذات عوازل للضجيج بعد ان وضع الرقع السوداء على عيونه . وكنت أستطيع أحياناً أن أفسر هذا الأمر لنفسي على نحو مرضٍ عندما اتذكر غلبة النعاس عليه ليلة البارحة وكأس الوسكي ما تزال بيده ، واستلقاءه الأخير على مسند الكرسي . إلا أن التفسير الشافي ما كان حاضراً في أغلب الحالات ، وان كنت أعزوه عن يقين إلى نشاطه الرائع . لقد كنت متأكداً يومها من انه لم ينهض من فراشه قبلي ، ولكنه كان قد فعل ذلك في الواقع .

ومثلما علمت بعد ذلك من إخوتي الكبار ، فقد دأب بابا على النهوض صباح كل يوم إبان شبابه في حوالي الساعة الخامسة والنصف ، أو السادسة صباحاً حيث كان الضياء المبكر يوقظه ، ويبقى يعمل بعد ذلك لخمس أو ست ساعات ، واذا وجد بعد ساعتين ان الكتابة لاتتواصل مثلما ينبغي ، فانه يتركها ويبدأ بالاجابة على الرسائل ، وكان يحب تدبيج الرسائل لأنها تريحه من « المسؤولية الضخمة للكتابة » او ماكان يسميه احياناً بـ « مسؤولية الكتابة الضخمة » ، لذلك لم يكن يتوجب عليه فيها ان يهتم كثيراً او قليلاً ببناء وجرس الكلمات ، لذلك فقد كان يطلق العنان لنفسه فيها فينكت « ويقشب » ويسدي النصائح الطيبة التي تبعث على العزاء .

وحينما كنا نزوره انا وبات (كان جاك قد التحق بالجيش وقتذاك) خلال فصول الصيف ، كان بابا يبدو وكأنه قد تعمد الاستيقاظ منذ وقت مبكر لتمضية بعض الوقت معنا خصيصاً ، ولكنني لم اكن ادرك ذلك في وقتها اذ ان بابا بنظري مجرد متبطل غني يمضي أغلب

نهاره معنا نحن الاطفال في السباحة ولعب التنس أو البيسبول والصيد والسفر الى هافانا .

وفي أغلب الأماسي كنا نذهب الى « فرونتن » من أجل « خاي الاي » ـ والتي هي احدى اجمل الالعاب التي يمكن للمرء ان يحلم بمشاهدتها حيث يعرض اللاعبون ـ الرياضيون بالفطرة ـ ضروباً من الرشاقة والخفة وهم يتسلقون الجدران مقدمين اجسادهم هدفاً للآخرين ، الامر الذي يجعلك تشهق عجباً ، كما لو كنت ترى « نورييف » وهو ينفذ « القفزة الكبرى » بادياً وكأنه قد تعلق بالهواء للحظة . وعلى الضد من الباليه فان لعبة الخاي الاي تنطوي على عنصر كبير من الخطورة ، اذ تصَوَّب الكرة أحياناً بسرعة تزيد على المائة ميل في الساعة . واذا علمنا ان كرة اللعب أصلب من كرة البيسبول لأدركنا ان قوتها كافية للتسبب في مقتل اللاعب عند ارتطامها بجسده .

وفي « الخاي ألاي » يقذف اللاعب الكرة نحو جدار أمامي لقاعة مستطيلة مثلثة الاضلاع بواسطة آلة مقوسة ومجوفة تشبه السلة ومربوطة بيده يبلغ طولها زهاء خمسة أقدام وتشبه المنجل . ويتعين على اللاعب الخصم ان يحاول مسك الكرة بلسان مضربه ، ويدعها تتدحرج الى وسط جوف المضرب ، ثم يقذفها في الاتجاه المقابل ، وكان هذا في حركة متواصلة واحدة . واذا أفلت اللاعب الكرة فانه لايخسر النقاط فقط بل ويسبب تغيير العد أيضاً .

وكانت الرهانات على اللعبة مسلية جداً حيث يتعين عليك ان تضع مبلغ الرهان في كرة تنس مثقوبة وترميها الى جامع الرهانات الذي يدفع اليك بالوصل ، ثم تعيد الكرة اليه . وكنت احب رمي الكرة واستلامها ، وإن لم اكن أفهم دائماً تداخلات المراهنات ، التي كانت تتغير طوال سير المباراة ذات الثلاثين نقطة ، وتتنوع مع كل نقطة جديدة ، ومع تبدل خط الفريقين المتبارين . وبوسعك أن تبدأ اللعب بالمراهنة على الفريق « س » (لندعوه فريق « المحاربين ») فاذا ماتخلف عن منافسه فباستطاعتك المراهنة بمبلغ كبير على الفريق « ص » (فريق « العمالقة » على سبيل المثال) بحيث يصبح المبلغ الذي ستربحه كافياً لتعويضك عما ستفقده في حالة خسارة فريق المحاربين . فاذا بدأ فريق المحاربين بالصعود ثانية ، وبدا وكأنه سيربح المباراة ، فبوسعك المراهنة عليه بمبلغ اضافي ، وسيكون بامكانك ان تنهي مراهناتك بربح معقول اذا فاز فريق المحاربين فعلاً ، أو أن لاتخسر اي شيء لو لم يفز .

كان بابا يعرف لاعبي الخاي الاي شخصياً ، وقد اعتاد على استقبال عدد منهم في الفنكا لتناول كأس من الشراب ، او القيام بجولة من السباحة ، وكان بوسع اللاعبين إقناع المشاهدين بالتفرج على لعبهم ، ونادراً ماكنا نخسر في المراهنات ، ولقد لازم الحظ بابا مرة فربح

في تسع وعشرين مباراة متواصلة ، ولدى انتشار هذا الخبر بين المتراهنين صرنا نرى اناساً لم يسمعوا بايرنست همنغواي الكاتب ابداً ، واناساً من النوع الذي يبدو وكأنه لايحسن حتى مجرد القراءة ، وهم يتقدمون نحوه جاذبين سترته ، وطالبين منه المشورة بشأن المراهنات ، ولما كان من المستحيل عليه متابعة كافة المراهنات خلال التطورات المختلفة للمباريات ، لذلك فانه لم يكن في الواقع مستشار مراهنات جيد .

كما اخذني بابا مرة لمشاهدة أول هراش للديكة ، وكان هذا مشهداً هافانياً يكشف عن جشع المقامرين بشكل لعين ، ولم يبد انه ينتمي الى مملكة الرياضة .

واتذكر انني راقبت مرة ديك مهارشة مثخناً بالجراح وقد وضع على خط أبيض وسط الحلبة ، وكان مطلوباً منه ان يصمد هناك اذ لم يكن يسمح له بالخسارة . كانت احدى عينيه مفقوءة ، والثانية آيلة الى الانغلاق ، وصدره ينزف ، فهوى على الارض . رفعه صاحبه ، وعمل له بعض الضمادات ، وأعاده الى العراك ، فأخذ عقاباً جديداً ، وسقط ثانية .

عند ذاك استصرخ صاحبه الشخص المراهن عليه بعدم اعادته الى المعترك قائلاً له بأن الديك قد نال مايكفيه من الجراح ، واقترح ذبحه ، أو اخراجه من الحلبة في حالة استعداد الطبيب البيطري لايقاف نزيفه قبل الموت .

غير ان المراهن رفض ذلك ، ليس لهوسه برؤية الدماء ، وانما لتصوره بأنـه لو صلى لقديسه الاثير ، ودفع كفّارة ، او أقسم بعدم خيانة زوجتـه مجدداً ، فـان حظه سينقلب ، وسيتعافىٰ طيره ، ولن يخسر مبلغ الرهان !

لقد كان ذلك على الاقل هو التفسير الذي قدمه لي بابا حينئذ .

وكثيراً ماكانت تحصل حوادث غريبة في هافانا . ففي إحدىٰ المرات ، وفيما كنا نمـر بسيارتنا بسرعة القواقع وسط سوق خلفي مزدحم في المدينة ، تناهت الى مسامعنا اصوات اطلاقات نارية ، ثم خرج رجل يعدو باتجاهنا وهو يحمل مدفعاً رشاشاً ، فتوقف وقال لسائقنا « جوان » وهو يسلمه مدفعه الرشاش .

ـ « امسك لي بهذا أرجوك إذ يتعين علي أن أعدو بسرعة ! » .

ولقد بلغت الدهشة بجوان درجة منعته من رفض استلام السلاح غير ان بابا ـ الذي كان يجلس الى جواره ـ صب عليه اللعنات وهو يقول :

ـ « لقد تركت بصماتك عليه كله أيها الاحمق . امسحه وارم به حالاً ولنغادر هذا المكان باسرع مايمكن » .

هل يساورك أي شك في صحة هذه القصة ؟ اقسم لك انها قد حدثت بالفعل ، ولكنني لم اعلم ابداً من كان الهدف المنحوس وقتها ، اذ لم يفلح احد في ربط المدفع الرشاش بجوان أبداً .
وأغلب الاحتمال ان الحادث كان عملية اغتيال سياسي لأن الانباء عنها بقيت طي الكتمان .

وعندما كنا نذهب الى مشرب « فلوريديتا » في تلك الأيام ، لم يكن الامر يشبه دخول « اورسون ويلز » بهو فندق « كراندهوتيل » مثلما يصف هوتشنر سفرات أبي . لقد كان فلوريديتا مجرد مشرب لطيف تعرف أبي على العاملين فيه ، واعتاد احتساء كؤوس الخمرة فيه بصحبة اصدقائه أو أفراد عائلته ، ومن حين لآخر ، كان يمكن لاحد الرواد ان يتعرف عليه ، فيسرع الى ابتياع احدى رواياته ، ويطلب توقيعه عليها ، وكان ابي يستفهم دائماً من المعجب فيما اذا كان يروم منه كتابة شيء ما بشكل خاص ، وعندما لاتتوفر مثل تلك الرغبة فقد كان يكتفي بكتابة شيء مضحك ويوقع عليه .

ولم تحصل عراكات او مشاهد شغب ممتعة كثيرة في فلوريديتا ، فقد كان بابا ينهي المشاجرات عادة بأن يهمس بشيء ما في اذن من يريد اثارة الشغب الذي كان يخجل في الحال ويغادر المكان .

« انني أهمس في آذانهم ياكك طالباً منهم إيقاف المشاغبات قبل أن تبدأ ، وبهذه الطريقة نتجنب التعرض الى الملاحقات القانونية وغيرها من المنغصات » ولكنه لم يقل لي ابداً مالذي كان يهمس به في آذانهم بالضبط .

وفي الأوقات التي كنا فيها لانتناول الغداء في فلوريديتا فقد كنا نحجز مائدة في مطعم صيني يدعى « باسفيكو » يقع في الطابق العلوي لبناية ذات خمسة ادوار . وكان يتوجب عليك للوصول اليه ان تستقل مصعداً قديماً له باب حديدي متحرك ، وان تتوقف في كل طابق ، شئت ذلك أم أبيت . وفي الطابق الثاني ، كانت هناك فرقة اوركسترا خماسية صينية تصدح بانغام موسيقية مخبولة من شأنها ان تضفي عليك مزاجاً شرق - أدنوي ، او تسبب لك الصداع ، اعتماداً على الفترة التي يتوقف فيها المصعد هناك ، ثم تبلغ الطابق الثالث حيث يوجد مبغى يعج بالفتيات اللائي يبتسمن ويلوحن لك ، اما الطابق الرابع فقد كان عنبر أفيون مليء بالأشباح القميئة المستهلكة المتكورة حول غلايينها والناسية لكل شيء .

وعندما تصل الطابق العلوي تكون قد نسيت كل شيء عن الأكل ، وهناك تجد المطعم الصيني المنبسط تحت مظلة ، حيث تستطيع ان تحصل على منظر جميل لهافانا ، وان تراقب الرجال منحنين على أواني الرز وهم يتحدثون بسرعة غريبة ، ويختلسون النظر اليك بين الفينة

والاخرى ، ثم يواصلون حرث الطعام . لم أشاهد في حياتي اناساً يأكلون بمثل تلك السرعة ، ويصدرون كل تلك الثرثرة ، اما مائدتنا فقد كانت تحفل على الدوام بمختلف اصناف الطعام الدسمة ، واذكر انني كنت أشعر بالحزن على الصينيين الذين يكتفون بتناول الرز فقط .

كان حساء الزعنفة الذيلية لكلب البحر أول ما يقدم من الاطباق ، ولما كنت قد شاهدت الكثير من كلاب البحر (القروش) وكان ذنبها اول مايظهر للرائي ، لذلك فلم اكن اتصور انني سأتناول أحدها يوماً ، ولكنها لم تكن سيئة المذاق ابداً إذ ان لها نسيج غريب ينسحق بيسر في الفم .

وفي غضون ذلك كان بابا يحكي لنا كيف انه تناول دماغ قرد بعد اخراجه من الجمجمة مباشرة عندما كان في الصين ، كما وصف لنا ايضاً كيف انه قد شاهد ، أثناء سيره في أحد شوارع شنغهاي ، شرطياً وهو يوثق ذراعي رجل خلف ظهره ويأمره بـالبروك ، ثم يخـرج مسدسه من جرابه ويطلق عليه النار في اذنه ، ولم يتجمع أحد حول الضحية التي لم تحاول المقاومة ابداً ، وعندما استفسر أبي من الشرطي بواسطة المترجم عن ماهية الجرم الذي إقترفه ذلك القتيل كان جواب الشرطي له بأنه قد أمسك بالرجل وهو يبيع الأفيون ، وان عقوبة تلك الجريمة هي الاعدام ، ولما كانت المحاكم منشغلة جداً بمثل تلك القضايا الشائعة ، لذلك فان التطبيق الفوري للعدالة هو الاسلوب الامثل لردع المجرمين ، وكان يمكن ان يكون ذلك حديثاً رائعاً ، ولكنني لم استطع في حينه أن أطلب طبقاً من المخ .

وبعد ان نكون قد فرغنا من إحدىٰ تلك الولائم الكبيرة ، كنا ننزل بهدوء ، فنمر بشياطين الأفيون ، وبالبغايا وهن مازلن يوزعن ابتساماتهن وتلويحاتهن ، ثم نجتاز أخيراً الأصوات المتنافرة للأوركسترا الصينية . لقد كان « باسفيكو » مكاناً رومنطيقياً غريباً ، ولكنني كنت أحس بالراحة عند الخروج الى ضياء الشوارع والعودة الى الغرب ثانية .

وأول صيف يشمخ في الذاكرة هو صيف عام ١٩٤٢ الذي علمني فيه بابا فن الرماية . كان بابا عضواً في نادٍ انيق للرماية اسمه « كلوب كازادورس دل سيرو » على مبعدة خمسة أميال من الفنكا ، ويقدم تسهيلات مختلفة لكل نوع من الرماية والصيد بالفاخ ، والبندقية ، الحمام الحي ، وبالغدارة .

كان صيد الحمام الحي أمتع شيء ، حيث تطلق حمامة من فوهة كائنة في خندق تحت أرضي يبعد عن الرامي زهاء عشرين ياردة ، ويمكن للحمامة ان تغادر الخندق من أية واحدة من الفتحات الخمس ذات الابعاد المتساوية فيه ، ويتعين عليك ان تصيبها قبـل ان تحلق حول

الجدار الدائري الذي يبعد أقصاه حوالي الاربعين ياردة عنك . وقد ذكر لي بابا بأنه سبق وان مارس مثل هذا الضرب من الرماية في « سان سباستيان » باسبانيا حيث كانت مبالغ الجوائز الاولى تصل ـ مع المراهنات ـ عشرات الآلاف من الدولارات . كانت تلك ثروة كبيرة ، وكنت افكر في انني قد حصلت أخيراً على فرصة لكسب أموال كثيرة بنفسي .

ولكن ما كان بمقدوري أن اصيب أي هدف لأول وهلة .

ـ « لاداعي للقلق على عدم اصابتك الحمام ياكگ . ركز على هيئتك فحسب » ، قال لي بابا ، « فبعد ان ترمي العدد الكافي من الاطلاقات ستبدأ بالتعرف على اصول الرماية ، وستتعلم تقدير المسافة التي ينبغي عليك التصويب عليها أمام الطير المحلق بزاوية معك . ان الرصاصة لاتصل النقطة التي تصوب عليها حال اطلاقك البندقية ، مثلما تعلم ذلك ، وان كانت تبدو للوهلة الاولى انها تبلغ المكان المقصود في الحال . انها تستغرق زهاء نصف ثانية او نحو ذلك كي تنوش الطائر ، اعتماداً على سرعة طيرانه ، ومدى بعده ، وقوة شحنة البارود ، وعلى عوامل قليلة اخرى » .

« الظاهر انني اسبب لك اللخبطة بتقديم كل هذه الشروحات . ركز على هيئتك فقط في الوقت الراهن . انك أيمن ، لذا اسند أخمص البندقية بقوة الى كتفك الأيمن وتأكد من ارتكازه هناك . ان عدم تثبيت البندقية بشكل مضبوط يجعلها ترفسك بقوة ، وعند ذاك ستبدأ بالجفول فتضغط على الزناد متوقعاً الألم ، وهذا مايؤدي الى انحراف بندقيتك خارج مدار الهدف قبل مغادرة الاطلاقة للشاجور » .

« نعم هكذا . بقوة الى نقرة الكتف . احتفظ برأسك منخفضاً ، وركز ثقلك على ساقك اليسرى المتقدمة ، واغمض عينك اليسرى . اعتقد انك على استعداد الآن لاستخدام بندقية من عيار عشرين ، ففي سن الحادية عشرة تصبح للصبي القوة لاطلاق بندقية من هذا العيار . انها سترفسك قليلاً أول الأمر ، ولكنك ان استطعت الامساك بها على نحو مناسب فسوف لن يمضي طويل وقت حتى يصبح الأمر طبيعياً ، ولن تحس بها في واقع الحال » وابتسم لي بابا .

كانت تعليماته منطقية ، ولكنها كانت أكثر مما أستطيع تذكره دفعة واحدة ، ففي أول مناسبة أطلقت فيها البندقية عيار عشرين ، نسيت أن اركز ثقلي نحو الأمام ، ففقدت توازني وأنا مرتكز على ساقي الخلفية وطوّحت بي البندقية أرضاً على ظهري ولقد هدر الجميع بالضحك عليّ بضمنهم بابا .

ـ « لاتبتئس ياكگ » قال بابا ، « انها الطريقة الوحيدة للتعلم . انني على يقين من أنك

ستركز ثقلك على الساق الامامية في المرة التالية . يكفي هذا اليوم ، فلست من المؤمنين بالمدرسة التعذيبية في التعليم ، ليس لأنك لم تستطع الرمي ، ولكن لأن الكتف المرضوضة يمكن أن تولد عندك عادة الجفول الدائم وتنهيك كرام الى الأبد . راقب كيفية قيامنا ، أنا وپات ، بالتصويب لبقية اليوم ، واستذكر دوماً النقاط التي اكدت لك عليها » .

وعلى الرغم من انني قد انغمست بعد ذلك في تدريب تعصبي ، إلا ان كتفي كانت تؤلمني بشدة خلال الاسبوع الاول وما كان بمقدوري اصابة اي شيء ، ولكن ما ان تلاشى الالم حتى بدأت باصابة بعض الطيور .

ولم يكن عدد الاصابات الموفقة كبيراً في البداية لانك تحتاج الى اطلاق مئات الخراطيش قبل ان تتعلم اصابة الطيور بشكل إرادي وبوسع اي امرىء ان يذكر لك بأن طيراً يحلق بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة ، وبزاوية تبعد عنك عشرين ياردة ، يتطلب اسقاطه التصويب امامه بمسافة قدم واحدة ، وانه سيبقى معلقاً في الهواء بعد ان تكون قد اطلقت النار .. الخ .. غير ان من غير المستطاع تعليم اي امرىء كيفية تمييز سرعة تحليق الطائر ، ولا الزاوية التي يطير فيها بالضبط .

ولقد أبدى بابا ارتياحه للتقدم الذي احرزته خلال الشهر الاول حيث كان ترتيبي الثاني أو الثالث في عدة مباريات ثانوية ، وادرك حالاً انني امتلك المواصفات الأساسية لرام جيد وهي : رد الفعل السريع ، وعامل « س » المجهول الذي يمكنك من ان تستجمع في ذهنك كافة المتغيرات في لحظة واحدة .

ـ « لاتدع آمالك تطفح كثيراً ياكگ ، ولكنني على يقين من انك ستنال فرصة طيبة في البطولة الكوبية للرماية هذا العام ، وسيتواجد هناك العديد من الرمـاة الممتازين ، ولكنـك اظهرت في مناسبة أو مناسبتين قدرتك على الوقوف نداً إزاء أمهرهم ، والمباراة التي اتحدث عنها مهمة طويلة شاقة إذ يتعين على كل متسابق اصابة عشرين طيراً ، وستكون هناك على الاقل فترة نصف ساعة من الانتظار بين طائر وآخر ، والانتظار هو المهمة العسيرة هناك عندما تكون قد افلحت في اصابة كافة اهدافك ، إذ يبدأ ضغط التوجس بالالحاح عليك بعد الطير العاشر ، غير ان ردود الفعل تختلف بين شخص وآخر ، ويبدو لي انك ستتحسن خلالها اعتماداً على مشاهدتي لك حتى الآن » .

« وتذكر ايضـاً ان العديـد من المتبارين سيعمدون الى احتساء الخمـرة خلال فتـرات الانتظار ، وسيؤدي ذلك الى ابطاء حركتهم ، ولذلك فاننا لن نُقدم لك شيئاً تشربه سوى بعض

الصودا ، ويجب عليك ان لاتشرب كثيراً منها في اي وقت ، ارشفها دون ابتلاع ، واغسل فمك بها ثم ابصقها » .

ـ « اين ؟ » سألته .

ـ « لاتقلق ، سنحصل على وعاء . ان أهم ماينبغي عليك تذكره الآن هو توفر فرصة اضافية امامك للفوز لأنك لن تتعرض لأي توتر نظراً لعدم وجود من يتوقع فوزك من النظارة ، كما انك لن تتحمل أي ضغط مادي ايضاً مثل مصاريف تلك البنادق الغالية ، والاعتدة ، والطيور ، والمراهنات الجانبية الكبيرة . انك في منأى عن كل هذه المشاكل » ضحك بابا ، « كما وسيستبد بك الحماس ، فلقد خبرت ذلك من قبل ، سيستبد بك الحماس لاريب » .

وعلى الرغم من التطمينات التي نلتها من حديث ابي ، الا انني كنت أشعر بتوتر شديد في يوم البطولة ! ولقد حاولت جاهداً اخفاءه كي لا افضح نفسي ، وجُمعت اموال المراهنات في سلة ينال الفائز الاول خمساً وسبعين بالمائة منها ، ويقدم الباقي للفائز الثاني ، وكانت المراهنات على « كابي كروتز » البطل السابق لكل من كوبا واسپانيا قد بلغت ثلاثمائة او اربعمائة دولار .

كان التطواف مع الجمهور قبل بدء المباراة بديعاً ، وكان احد المتبارين رئيس الشرطة للرئيس « باتيستا »[١٥] وقد لفت نظري كشخص لطيف ، وان كان يرتدي ذلك النوع من النظارات المعتمة التي تعكس الضياء وتحجب عنك رؤية عينيه .

وكان الجميع ينكتون ويستعيدون ذكريات المباراة السابقة ، ولكن كانت هناك ايضاً تلك النسبة الطبيعية من المتبارين المقيتين المتهيجين ، الذين يمسحون بنادقهم مراراً بقطع تلميع من القماش ، تراقبهم زوجات واطفال اكثر قلقاً منهم وهم بمواجهة طلبات بالجملة مثل جلب شيء مهم ما من السيارة ، او ربما « اتركوني لوحدي » فقط .

كما تواجدت هناك ايضاً تلك الفئة من الرماة « الطاووسيين » مثلما تحلو لي تسميتهم ، وكلهم متحمس لنوادي الصيد ، ويمتلك العديد من الشارات المعلقة على ستر الصيد الخاصة بهم ، تشهد لهم بعضويتهم في النوادي الشهيرة ، وبانتصاراتهم السابقة ، بحيث انهم كانوا يبدون لناظرى وكأنهم دعاة للسكائر .

ـ « اين يمكن ان تحصل على مثل هذه الشارة الجميلة ياسيدي ؟ » سألت أحد السادة الأماجد من ذوي النظرات القوية .

---

(١٥) دكتاتور كوبا قبل الثورة الكوبية بقيادة كاسترو .

ـ « حصلت عليها لاصابتي ثلاثين متصلة في مونت كارلو يابني » .

ترى هل كان المصابون أشخاصاً أم حمامات ؟ ذلك ماكنت أتساءل عنه مع نفسي .

ولست اذكر الكثير عن بداية المباراة ، عدا أنني كنت اواجه طيوراً سهلة المنال فلم افشل في اصابة اي منها ، ولكن وفي الجولة الثانية عشرة ، فقد تعين علي اصابة طائر متمرس بالفعل ، اذ تلقف الريح حالما خرج من جحره ، ومع ان اطلاقتي الاولى لم تصبه ، الا انني عاجلته بالثانية ، فقفز من على الجدار وسقط داخل الميدان .

وعندما عدت الى مقعدي بجوار بابا قلت له :

ـ « انني لا أتذكر حتى متى اطلقت عليه الرصاصة الثانية » .

ـ « ممتاز انك منفعل وتطلق بالغريزة . خذ بعض الصودا ، ولكن ابصقها في الوعاء » . قال بابا . ولابد اننا كنا نبدو مضحكين الى حد ما ، ونحن نجلس معاً ؛ انا اتلمظ الصودا وابصقها ، وبابا الى جواري يواصل تدفقه الكلامي السريع حول كل موضوع عدا الصيد محاولاً بذلك تهدئتي كي لا أنفعل .

وفي الجولة السابعة عشرة ، لم يبق من أصل المائة والخمسين متسابقاً سوى « مونكوبيرز » ، و « كابي كروتز » ، وانا .

« بوسعي ان ارى انك ستكون بطلاً رائعاً » ، قال لي بابا مبتسماً . « ركز على اصابة طيريك التاليين ، وانس كل مايتعلق بخطاب التتويج » .

ثم أخطأ كابي كروتز حمامته التاسعة عشرة ، فاهتاج الجمهور كله ، وقد سمعت رجلاً يقول خلفي :

ـ « مسكين مونكو ، لو خسر الآن فستكون تلك كارثة عليه ؛ اما اذا فاز فلن يكون قد هزم الا صبياً فحسب » .

وعلى اية حال فقد أصاب مونكو طيره العشرين فتفادى عار الهزيمة .

جاء دوري الآن . لم تعد قدماي في مكانهما ، كما لم اعد استطيع الرؤية جيداً . هناك قطرات من العرق في مقلتيك ؛ امسحها . انهض . سر مستقيماً دون تعثر . بحق المسيح ـ انهم يصفقون . ركز ثقلك على الساق المتقدمة . رأسك اخفضه . اسند خدك على خشبة الاخمص . تحرك يميناً . تحرك شمالاً . عد الى المركز . احتفظ برأسك منخفضاً . هدّف فوق الفخ الاوسط ـ ماالذي سيخرج بحق الجحيم ؟ هوووش ... طائر سهل . تحرك امامه . ابق امامه .

اضغط على الزناد . الزناد اللعين .

وبعد لحظة انفجر المكان بالهتاف ، وهجم المتفرجون عليّ بعد ان اجتازوا الجدار ، كما عانقني بابا ، وهكذا فقد استطعت ـ وانا في الحادية عشرة من العمر ـ أن افوز ببطولة كوبا للرماية ضد مجموعة من أفضل رماة الأجنحة في العالم .

بعد ذلك بدقائق كنت اصرح في البار ، امام مجموعة من المعجبين ، كيف ان مسألة الفوز من الامور الهينة على شخص مثلي يتمتع بقوة نظر بنسبة ٢٠/١٠ ؛ وبردود فعل انعكاسية فورية ؛ وبتناغم في الحركة ؛ وبالصبر والحماس . وبعد ان اصغى بابا لحديثي هذا أطول ماكان باستطاعته تحمله ، أخذني جانباً وقال :

ـ « إسمع ياگگ ، عندما تكون ممتازاً بالفعل في أداء شيء ما ، وكنت تدرك هذا الامتياز ، فسيسعدك ان تتفاخر به أحياناً ، ولكنك ستشعر بالندم بعدئذ ، وستفتقد الاحساس بامتلاكك لتلك الميزة إن بقيت تتبجح بها كثيراً » .

ولقد استمعت الى نصيحة بابا وغيرت موضوع حديثي بسرعة .

وفي اليوم التالي ، خصصت صفحات الرياضة في الجرائد الهافانية أعمدة كاملة لانتصاري هذا ، وراحت تسرد التفاصيل الدقيقة عن حياتي دون ان يكلف اي من صحفييها نفسه عناء التحدث معي والاستفسار عنها مني ، ولا حتى بكلمة واحدة . وطبقاً لأقوالهم فقد كنت أنا طالباً ممتازاً على الدوام ، وأتكلم الاسپانية بطلاقة ، وامتلك موهبة أبي في الكتابة الفنية ، وارفق بالحيوان عندما لا أتواجد في ميدان الصيد ، ولي عادات حميدة على المائدة .. الخ ، غير ان تواضعي ـ على حد قول أحد اولئك المحررين ـ يبلغ حداً يجعلني اخجل من التحدث عن أي من خصالي الحميدة تلك ، ويضيف ذلك المحرر « الخلاق » قائلاً بأنه قد تحرى عني لدى الخدم الكثيرين المستخدمين في « المزرعة الريفية » التي يمتلكها أبي ، وانهم قد أعلموه بأنني لم اتخلف أبداً عن قداس يوم الأحد ، وانني أتولى بنفسي ترتيب فراشي في الصباح الباكر ، واعاون الخدم في انجاز الاعمال المنزلية الرتيبة عن طيب خاطر ، وانني لا اترك طعامي ابداً في الاناء ، وانني مؤدب من دون تنازل مع كافة الخدم ، وان أقراني الاقل مني حظاً في القرية يحبونني ويحترمونني كثيراً ، وباختصار ، فانني « نينو موديلو » ، اي « طفل نموذجي » .

نشر بابا الجرائد الهافانية الثلاث على الأرض أمامه ، واستغرق بالضحك وهو يقوم بترجمة كل هذا الكلام لي .

ـ « حسناً ، انهم على حق في شيء واحد على الاقل ، إذ انني لم اشاهد طفلاً اسرع منك في

تبديل الأفرشة صباحاً عندما تستيقظ مبتلاً » .

« بحق السماء ، ان هؤلاء الصحفيين الكوبيين عظماء ياكگ ! لم تكلف نفسك كل هذا العناء في إنجاز كل تلك « الأعمال المنزلية الرتيبة » مادمنا نمتلك كل اولئك الخدم الاسطوريين الذين تحدث عنهم ذلك الأخرق ؟ انهم يحاولون ان يصنعوا منك أول قديس كوبي حقيقي ، « قديس فنكا » (إل فرجن ديلافنكا) . وعلى اية حال ، فانك تقوم فعلاً بحضـور القداس صباح كل يوم أحد ـ طبعاً باستثناء الايام التي تستيقظ فيها ثملاً » وهدر بضحكة مجلجلة .

ـ « اسمح لي بالقاء نظرة فاحصة عليك يانموذجي . دُرْ الى اليمين ، انه الجانب الأجمل لك » كان بابا يقلد في حينها مصوراً كادحاً ويلثغ على طريقة الصبيـان : « إقلع عن ادخال اصبعك في أنفك . كيف يتسنى لي ان اصورك وانت تنقر في انفك ؟ » .

ثم عاد الى جديته وهو يقول :

ـ « ولكن ربما يجدر بنا أن نخفف من قسوتنا على اولئك الصحفيين الكوبيين . كل مافي الأمر انهم يمتلكون نظرة عاطفية للحياة ، وبالطبع فـان أغلب المحررين في العـالم تعوزهم الدقة ، وتأتي الكثير من الاخطاء من الخطوط الميتة مبكراً طبعاً ، ومن الحاجة الى كتابة خبر ما بسرعة لتغطية الطبعات المسائية او الصباحية ، وفي الكثير من الاحيان لايتوفر لديهم مايكفي من الوقت حتى للتمحيص أو التأكد من المادة المكتوبة ، اودقة مصادر المعلومات . اسألني أنا فقد بدأت حياتي العملية مخبراً صحفياً في جريدة « ستار » بكنساس ستي . الا ان العديد من الأخطاء تنجم ايضاً من غرور المحرر ، واحتقاره لذكاء قارئيه ، اما البقية فتأتي من كسله ، او من شدة الاجهاد ـ اذا أردنا دقة التعبير » .

« انها مصدر أكيد لتعلم فن الكتابة ، ولكنني أشك في انني سأضطر للقلق عليك مصدقاً الجزازات المدونة عن شخصك هنا ياكگ ـ عفواً ، يانينو موديلو » . إذ فاتني ان اناديك باللقب المناسب لك » .

ولم يكن كل شيء لعباً رائعاً في هافانا خلال ذلك الصيف من عام ١٩٤٢ ، فقد انتشر فيه وباء شلل الاطفال ، وانتابتني الحمى ، ثم تضخم بلعومي ، واخذت رجلاي تؤلماني ، وبدأت احس بشيء غريب فيهما ، ولقد الزمني بابا الفراش حالاً ، واحضر اختصاصيين اثنين من هافانا في بحر ساعة فقط ـ احدهما متخصص بالاعصاب ، والثاني طبيب باطني ذائع الصيت ـ كما اعد سريراً خفيفاً له في غرفتي ليستطيع ملازمتي ليلاً .

كان الطبيبان يزوراننا قادمين من هافانا مرتين في اليوم ، فيدقان على ركبتي بمطرقة

ناعمة من المطاط ، ويراقبان رجليّ ، ثم ينزويان في ركن ويتشاوران بهمس .

استمرت الحال على هذا المنوال ثلاثة ايام اخذ خلالها المرض مني مأخذاً ، ولقد اخافتني الطريقة التي كان يبتسم بها الطبيبان لي ، ووسواسهما الشديد ، ونقرهما على ركبتي بالمطرقة المطاطية . وكنت قد علمت بأمر انتشار مرض شلل الاطفال في هاڤانا ، وبأن اعـراض ذلك المرض قد ظهرت عندي ـ حمى شديدة مع الم في عضلات الارجل ، ولكن بحق الله ، لم لايقول هذان الرجلان اللطيفان المتمرسان شيئاً عن مضاعفات هذا المرض ؟ شيئاً من قبيل :

« ستتحسن صحتك ولن تصبح مشلولاً » غير انني كنت أعرف بان هناك سبباً ما وراء صمتهما ، وانه من غير اللائق سؤالهما .

كانت المنضدة الى جانب سريري تكتظ بأصناف الأدوية ـ كلها غير مفيدة طبعاً ، ولكنها كانت الشاهدة على مدى اهتمامهما بي ، ولم يكن بابا يسمح لأي شخص بدخول الغـرفة ، باستثنائه هو والطبيبين ، وكان يقيس درجة حرارتي مرة كل اربع ساعات ، ويجلب وجباتي بنفسه ، وفي المساء كان يستلقي الى جانبي على سريره النقال ، ويقص علي قصصاً رائعة عن حياته في « مشيگن » كفتى ، وكيفية قيامه باصطياد أول سمكة تروتة ، ومبلغ جمال الغابات الخضراء البكر قبل مجيء عمال التحطيب . وحكى لي عن المرات التي تملكه فيها الخوف وهو صبي ، وكيف أنه كان يحلم بوحش يكسوه الفرو يزداد طولاً في كل ليلة ، وكاد أن يأكله لولا انه سارع بالقفز من فوق الجدار . وكان يقول :

« الخوف شيء طبيعي تماماً ، وهو ليس مدعاة للخجل ، والوسيلة الوحيدة للسيطرة عليه تكمن في كبح جماح الخيال » ولكنه أردف قائلاً بان ذلك أمر عسير على الصبيان .

وأخبرني بأنه كان يحب قراءة الكتاب المقدس عندما كان عمره سبع او ثمـان سنين لاحتوائه على الكثير من قصص المعارك ، « ولكنني لم اكن قارئاً متمرساً أول الامر ياگگ ، مثلك تماماً ، فقد مرت عدة سنين قبل أن ادرك بأن عبارة « سأحمل الصليب مغتبطاً » لم تكن تشير الى نوع من الحيوانات اللطيفة ، ففي حينها كان يسيراً عليّ أن أتخيل دباً له أعين صليبية ، وكانت كلمة « مغتبطاً » تصلح لأن تكون اسماً جميلاً لأحد الدببة » .

وكانت أغلب قصصه تدور حول ممارسته الصيد في غابات مشيگن الشمالية ، وكيف انه كان تواقاً لفكرة البقاء صبياً مثل عمري الى الابد كي يستطيع العيش هناك دوماً . وكان يواصل حديثة على هذا المنوال الى ان يغلبني النعاس .

واخيراً فقد مرت الازمة بسلام واستردت عافيتي فقال بابا وهو يضرب الخشب بيده :

« بحق المسيح ، لقد قهرنا ذلك المرض ياگگ ! » .

ومع أنه ما من احد قد استطاع في الواقع قهر مرض شلل الاطفال قبل اكتشاف لقاح « سولك »[١٦] (Salk) الا ان شعوراً قوياً مازال يغالبني بأن عناية بابا الرقيقة وثقته وصلواته لم تكن غير مفيدة .

غير ان بابا قام فعلاً بانقاذ حياتي خلال صيف ذلك العام ولكن في ظروف اخرى .

ففي الأوقات التي كنا لانذهب فيها لصيد « المرلين » كنا نستخدم « پيلار » للغطس تحت الماء ، حيث نبحر به بعيداً باتجاه إحدىٰ السلاسل المرجانية الصغيرة لنمارس هوايتنا هناك ، ولم نكن نمتلك كل هذه الانواع من الاجهزة المفيدة التي يستخدمها الغواصون حالياً ، ولا تلك العدد المعقدة للصيد ، اذ لم تزد تجهيزاتنا على النظارات ، أو أقنعة الوجه بعدئذ ، والرمح الذي يشبه شوكة نبتون .

وكنا نصطاد في أغلب الأحيان الأسماك الصفراء الذيل ، والأسماك النهاشة والنخارة ـ والأخيرة تدعى بهذا الاسم لأنها تصدر صوتاً يشبه صوت النخر البشري عند اخراجها من الماء ، وكان مجرد الاكتفاء بالتفرج على الاسماك تحت الماء مجلبة للمتعة الكبيرة لنا ، إذ تبزغ فجأة مجاميع هائلة من الاسماك وكأنها مرج فسيح من المتحركات الفضية لتغيب عن الانظار بذات السرعة التي ظهرت فيها ، وكانت أسماك الباراكودا ـ المعلقة في الماء بثبات مطلق ـ تبدو وكأنها تضرب عرض الحائط كافة قوانين الجاذبية الارضيـة ، وفي بعض الأحيان ، كـانت الباراكودا تقترب منا كثيراً حتى لايكاد يفصلنا عنها سوى ثلاثة أو أربعة أقدام ، ثم تفتح فاها لترينا أسنانها الضخمة ، ولعلها تفعل ذلك من قبيل التثاؤب ليس غير ، وكان بابا قد حذرنا مسبقاً بأن الخطر الرئيسي للباراكودا ينجم عن دخولك المياه القريبة منها على حين غرة ، لأن من شأن ذلك أن يدفع بها الى شن هجوم مباغت عليك قبل أن تولي هاربة ، بعد ان تنحني لك على الطريقة اليابانية ونصف فخذك بين فكيها !

وكانت هناك أيضاً أسماك اللخمة اللاسعة ، ولكنها كانت هي الاخرى قليلة الاهتمام بنا ، ولم يكن هناك في ذلك الحيد البحري أي شيء يُخشىٰ منه الا إذا راودتك نفسك فقمت بدس اصابعك في ثقوب الصخوب بحثاً عن جراد البحر ، اذ ينبغي عليك ان تجس تلك الثقوب بالرمح اولاً ، خوفاً من اختباء أسماك الحنكليس فيها ، وبوسع سمكة كبيرة من هذا النوع ان تبتر يدك من الرسغ اذا ما ازعجتها داخل المجال الخاص بها .

---

(١٦) جوناس إدوارد سولك (ولد عام ١٩١٤) عالم بكتريولوجي امريكي طور لقاح شلل الاطفال المسمى باسمه

وكانت كل الاسمـاك تقريبـاً لاتحفل بالغـطاسين البتـة ، فحتى سمكة « جـوفش » الكبيرة ـ التي يسعى اليها الصيادون كسعيهم وراء الحيتان الرمادية ـ كانت تكتفي بالمرور بنا مر الكرام . ولقد بددت عليها العديد من الرماح لانها ـ على الرغم من كونها هدفاً سهلاً بسبب ضخامة اجسامها التي تزن مائتي او ثلثمائة رطل ـ كانت تكتفي بهز كتفها غير آبهة بالطعنة الموجهة اليها وتسبح بعيداً ورمحي غارز في خصرها .

وكما قلت ، فقد دأبنا في كل مرة ذهبنا فيها للصيد بالرمح تحت الماء الى الرسو قرب حيد صخري . ولكننا كنا نعمدأحياناً الى صيد المرلين . وعندما لايواتينا الحظ في الصيد صباحاً ، فقد كنا نتناول الغداء على متن بيلار ، ثم نتوجه الى سلسلة من الصخور الكائنة على حافة تيار الخليج على مبعدة ميل أو أكثر من الساحل . ولما كان البقاء في البحر طويلاً أمراً متعباً بالنسبة لي ، لذلك فقد كنت افضل البقاء على جرف الحيد الصخري الذي كان بوسعي لمس قاعة بيسر مع ان طولي لم يكن ليزيد في وقتها على الاقدام الأربعة والنصف . ويشرف ذلك الحيد الصخري على حافة تيار الخليج ، حيث يزداد العمق فجأة داخل ساحل المحيط ليناهزستمائة قامة . ولما كنت قد سمعت كثيراً عن اصناف وحوش البحر المتواجدة هناك ، لذلك فقد صممت على البقاء بعيداً عن تلك المنطقة .

وفي احد الأيام ، وبعد انصرام صباح صيد تعس ، القينا بمرساتنا على تلك السلسلة من الصخور المحاذية لتيار الخليج . وهناك كان « كريكـوريو » رفيق أبي يتـولى بنفسه مهمـة الانتقال الينا في زورق صغير ليجمع السمك المصطاد من رؤوس رماحنا ولما كنت ابدد الكثير من الطاقة لمواصلة العوم في الماء ، لذلك فقد اقلعت عن العودة الى الزورق مثلما كان يفعل أبي ، اذ خطرت لي فكرة خرقاء تصورت انها ستساعدني على خزن اكبر عدد من السمك المصطاد ، ففتحت حزامي ، وادخلت احدى نهايتيه في فم السمكة ، واخرجتها من فتحة الخيشوم ، واعدت ربط الحزام ، وبهذه الطريقة فقد اصبح بمقدوري الامساك بثلاث أو اربع أسماك قبل ان اضطر الى قطع مسافة اربعين او خمسين قدماً للعودة الى الزورق الصغير .

ولقد واتاني الحظ فامسكت بثلاث أو أربع سمكات ناخرة عندما لاحظت فجأة اختفاء كل أصناف الأسماك عن النظر ، ولم أكن افهم وقتها كيف يمكن أن يحصل مثل هذا الامر فجأة ، او اين يمكن ان تختبىء كل حشود الاسماك تلك ، اذ لم يخطر ببالي ان آلاف الثقوب المنتشرة في تلك السلسلة المرجانية كانت كافية لايواء الآلاف من الاسماك .

وكنت ما أزال اقلب الفكر في تلك المشكلة عندما ساح نظري في الزرقة الفسيحة لتيار

الخليج فادركت فوراً سبب اختفاء كل تلك الاسماك ، حيث شاهدت ثلاثة قروش كبيرة يزيد طول الواحد منها على ثمانية عشر قدماً وهي تتجه نحوي في موجات لولبية بطيئة متتبعة رائحة الدماء التي كانت قد بلغت المياه العميقة .

ورحت ازعق برعب وبشكل عشوائي فقد داخلني خوف لم اشعر بمثله طيلة حياتي . سمعني أبي عبر الامواج فصاح :

ـ « ما الامر ياكگ ؟ »

ـ « قروش ، ثلاثة قروش كبيرة ! »

ـ « حسناً ياولد ، هون عليك . إرم لها بشيء ما للفت انتباهها ثم أسرع بالسباحة نحوي »

انتزعت السمك الناخر من حزامي ورميته باتجاه القروش ، وسبحت نحو ابي ، الذي لم يكن يبعد عني أكثر من أربعين ياردة وعلى الرغم من انني لم أكن سباحاً ماهراً وقتذاك ، الا انني اعتقد بانني قد وصلت اليه في وقت قياسي ، فتلقفني بذراعيه ، ورفعني على كتفيه ، ثم خاض بي نحو الزورق باسرع مايمكن . وعندما نظرت خلفي لاتبين فيما اذا كانت اسماك القرش قد واصلت متابعتنا ، شاهدت هيجان اليم على الحيد وتكسر صفحة المياه بالزعانف حيث كانت القروش تقيم وليمتها على سمكي الناخر .

ولست على يقين من ان بابا كان خارق الشجاعة في ذلك اليوم ، ولكنه بدا بارد الاعصاب ورابط الجأش وان كنت لم أدرك في حينها حقيقة انه كان خائفاً مثلي ساعة توجهه بي نحو الزورق ولكنه لم يعمد الى السباحة نحو الزورق للنجاة بنفسه عندما صرخت مرتاعاً من القروش بل تمالك نفسه واستطاع ان يتماسك وينصحني برمي شيء ما نحوها والاتجاه اليه .

واتصور ان اي رجل آخر كان سيلبث في مكانه متماسكاً في موقف من هذا النوع لينقذ فلذة كبده ، ولكنني لم أشعر ابداً بأنني ابنه مثلما شعرت يومها بذلك . ففي اعماق جسده الرياضي كان بابا دائماًرجلاً محافظاً وغير قادر الى حد ما على التعبير عن شعوره بالطريقة المألوفة ، ولم أكن ادرك كم كنت أثيراً عنده حتى علقني على كتفه الذي كان يبرز بالكساء فوق سطح الماء ، وخاض عبر تلك السلسلة المرجانية ومعظم جسده يغطس تحت الماء .

ولقد زعق بابا بوجهي غاضباً عندما اكتشف انني قد احتفظت بالاسماك الميتة معلقة بحزامي ، وان رائحة دمائها هي التي جذبت اسماك القرش من اعماق تيار الخليج . كان الحظ قد حالفنا ، ولقد اصبحت تلك الحادثة موضوعاً لقصة مثيرة سيتسنى لي ان أرويها

لاصدقائي ، كما كان بابا يتلقف مثل هذه المواقف الخطرة طالما كان بالامكان تجاوزها بسلام .
واتصور ان هذه الحادثة بالذات قد شكلت أساس مشهد القرش الذي يهاجم اخي في « جزر في التيار » . كان أبي كثيراً ما يعمد الى تغيير تفاصيل الحوادث قليلاً بتحويرها وتطويرها وان كان دائب الاستثمار في رواياته لحوادث تحصل بالفعل .

ولكن ، وفي بعض الاحيان ، كان يغادره الاحساس بالواقعية عندما يمتزج عنده الخيال بالواقع قبل وضع النتاج النهائي على الورق . وبوسع هذا المنحىٰ ان يكون خطراً مثلما سنرىٰ في الفصل التالي .

دون كيشوت بمواجهة فريق الذئاب Don Quixote vs. The Wolf Pack

هل تساءلت يوماً فيما اذا كان بوسع زورقك الخاص ، زورقك انت ، المجهز جيداً ، والمسلح ، والمزود بالرجال الشجعان ، ان يفلح في اغراق غواصة نازية ؟ لنعد الى عام ١٩٤٣ . وقتها كانت الغواصات الالمانية تمخر اعماق البحار بصمت مهددة كل شيء يعوم فوقها أو بالقرب منها . حسناً ، هل تبلغ بك الجرأة حداً يدفعك لمواجهة غواصة حربية بقارب صيد ؟ كلا بالطبع اذ ان فكرة كهذه ستبدو لك أمراً سخيفاً ، خصوصاً عندما لايزيد طول زورقك على الأربعة عشر قدماً ، ولا تزيد قوة محركه على المائة حصان ، وان كان بمقدورك تجهيزه بما يكفي من الرجال والاسلحة ـ ولكن على رسلك . لتفرض جدلاً بأنك قد امتلكت زورقاً أكبر من ذلك ـ لابد انك قد شاهدت مثل تلك الزوارق ، ولعلك قد اعجبت بها مع شيء من الحسد . انها زوارق « برترام » (Bertram) بطول اربعين قدماً التي تتميز بالسرعة والقوة وخفة الحركة بحيث انك لن تبخل بأي مبلغ من المال من أجل الحصول على واحد منها .

ثم تخيل ان زوجتك قد اقنعتك بابتياع بطاقة من تلك السحبات الجنونية لليانصيب التي تؤمن للفائز مبلغ ميلون دولار ، والتي تكون فيها فرصة الربح امامك واحدة من اربعة او خمسة ملايين . ولكن لابد ان بطاقة ما سترىح بالتأكيد اخيراً ـ ولن تكون انت الرابح طبعاً ، بل هو احد رفاقك في الصيد ، والذي سيزود زورقه بجهاز راديو للارسال والاستقبال ، وبمدافع رشاشة عيار خمسين مليمتر ، وبقنابل يدوية ، وبقنبلة كبيرة يستطيع القاءها من على جسر معلق فوق البرج المخروطي للغواصة .

والآن ما الذي سيحصل لو انك تعرفت على هذا الرجل ـ وهذا امر ممكن اذ ينبغي على الرابح ان يجمع حوله الاصدقاء ـ فيدعوك للالتحاق بالرجال الذين يصطادون معه ؟

فبعد ان ربح المليون دولار ، انجذب اليه العديد من الناس ، ولم تكن دوافع بعضهم بريئة تماماً ، ولكنه كان حسن التصرف وكيساً ، فعمل على اختيار الرجال الاقوياء المشهود بصلابتهم لاصطحابهم في زورقه ، وضم زوجاً من لاعبي كرة القدم ذوي السواعد القوية[١٧]

---

(١٧) يقصد المؤلف هنا كرة القدم الامريكية .

التي تستطيع ان تأخذ على عاتقها مهمة اسقاط القنبلة نحو الغواصة ، ومنهم ايضاً لاعب « بولو »[١٨] ثري من « لونگ آيلند » اتخذه مرافقاً له (يتلازم رجال المال مع بعضهم فكثيراً ما تتحمل الأموال القديمة الثروات الجديدة) .

ولكنه لاينسىٰ أصدقاءه القدماء عند اختياره لصحبه ، فيختارك أنت لتشغيل الراديو ، ولن تحتاج للقيام بهذا العمل لامتلاك مهارات خاصة مثل معرفة شفرة مورس أو ماشابه ، اذ ان كل مايتوجب عليك عمله هو ادارة بعض الازرار .

ولقد ابتسم الحظ لهذا الرجل ، وهو تواق لاستدراج القدر مرة اخرى في محاولة اغراق اولئك الهون الكفرة ، وتخليص البحار من شرهم المقيت . فهل ستلتحق به وبرجاله ؟ آمل انك ستستجيب له إذ أن من شأن ذلك ان يكون مصدراً رائعاً للمتعة .

لعل هذا يبدو أمراً غير قابل للتصديق ، ولكنه لايختلف عما حصل فعلاً .

ففي صيف عام ١٩٤٣ ، عندما كان عمري اثنتي عشرة سنة ، استطاع أبي إقناع السفير الامريكي في كوبا بأن « پيلار » الذي يبلغ طوله اربعين قدماً ، يمكن أن يتحول الى مدمرة صغيرة تتولى اغراق إحدىٰ الغواصات الالمانية التي كانت دائبة على ضرب سفن الحلفاء في مضائق فلوريدا . وعندما قدمنا انا وپات الى كوبا لقضاء فصل الصيف هناك ، كان پيلار مسلحاً حتى اسنانه بالعدد والأسلحة والرجال ، فقد وضع رجلان في المقدمة وزودا بمدافع رشاشة ، ورابط رجلان آخران على المقود برشاشاتهم وقنابلهم اليدوية ، وكان ابي يشرف على الجسر المعلق ، ومعه كانت القنبلة التي تشبه التابوت ولها مقابض في كل جانب . كانت الفكرة هي المناورة ببيلار قرب الغواصة ـ كيف ؟ لا أحد يعلم ـ فيقوم اثنان من لاعبي « خاي ـ الاي » الشجعان القليلي التفكير برمي القنبلة داخل برج الغواصة ، وكان يفترض ان القنبلة ستفجر الغواصة وترسلها الى ملكوت البحر .

وبمجرد ان بلغت تلك الخطة مسامع مارتي حتى بادرت الى التعبير عن رأيها بذكاء ، ان لم يكن ببرود :

« ماذا لو انحرفت القنبلة ولم تصب الهدف ياايرنست ؟ ان برج الغواصة أعلى من جسر پيلار ، وقطر البرج ستون بوصة بينما لايزيد قطر مدخله على الثلاثين بوصة ، فاذا لم تلج القنبلة المدخل ، فانها لن تستطيع تفجير الغواصة حيث ستتدحرج وتفجر البرج عليك .

---

(١٨) لعبة الكرة والصولجان .

وسيؤدي ذلك الى اثارة بعض الهرج في الغواصة بطبيعة الحال ، ولكنها ستفوق من وقع الصدمة سريعاً ، وتبتعد حالاً مسافة الف ياردة او نحوها ، وعند ذاك ستتكفل مدافعها الفوقية من عيار ستين بوصة بتفجير بيلار بأكمله . »

ولم تعط مارتي الفرصة لبابا كي يرد : « ياهريري ، انك بحاجة الى استراحة »، استمرت مارتي ، « ولعل الوقت قد حان للذهاب الى ساحل « كوانا باكوا » ليتسنى لك ان تدبج هناك ماكنت تروم الكتابة عنه بصدد اولئك الصينيين الذين يقومون بسقي البراز البشري الذي يبيعونه الى المزارعين ـ ذلك الكتاب الذي وعدت « كوليرز »[١٩] بكتابته ، والذي يتحدث عن كيفية قيام المشترين بفرز البرازبجسه بالقش لمعرفة مقدار سمكه ! » !

ـ « هل تتصورين اني لاادرك تماماً واقعية الحرب ؟ قال ابي ، « لقد كان لدي وقتٌ كافٍ للتفكير فيها عندما انهمك الاطباء في استخراج تلك الشظايا المائتين والسبعة والثلاثين (ام لعلها كانت مائتين وثمانية وثلاثين ؟) من ساقي في المستشفى بميلانو خلال الحرب العالمية الاولى » .

ـ « ياحبيبي ، لو اخطأت تلك القنبلة هدفها فسوف لن يتأتى لهم في هذه المرة التقاط مائتين وثمان وثلاثين قطعة من جسدك انت ! »

ـ « اعرف ذلك ياحبيبتي ، ولكن المشروع قد تكامل الآن وفات الوقت التراجع عنه ، فقد هيأنا كافة الاعتدة والمعدات على متن الزورق ، ووقعنا على استلامنا لها ، كما ان البحارة على اشد الحماس للمشاركة في هذه المهمة ، وبالاضافة الى ذلك فهم رجال لطفاء ـ صحيح ان « نفيل » ليس من ذلك النوع المثقف من الرجال فقد سألته البارحة عن السبب الذي يدعوه لقراءة حياة المسيح بمثل تلك السرعة فاجابني بأنه لم يستطع الانتظار لمعرفة كيف انتهت حياته ! ولكنه رجل لطيف تماماً ومخلص جداً ، وهو يشغل المكان المناسب له تماماً » .

ـ « بالتأكيد » قالت مارتي ، « واعتقد ان عمه كان احد الغرقى في حادث سفينة التايتانك »[٢٠] سمح بابا لتلك الملاحظة المبطنة بالمرور .

ـ « بصراحة فان « هامر » هذا القناص من البحرية الامريكية الذي أعارنا اياه الملحق البحري الامريكي هو البحار الوحيد الذي اشك في مقدرته ، اذ ان كل مابمقدوره عمله هو

---

(١٩) دار نشر عالمية .

(٢٠) سفينة نقل ركاب ضخمة غرقت في المحيط الاطلسي عام ١٩١٢ اثر اصطدامها بجبل جليدي تحت مائي في اول رحلة لها عبر الاطلسي .

مطالعة الكتب المضحكة . وعندما طلبت منه التهيؤ لاشغال المكان المخصص له اثناء الممارسة الصباحية البارحة حينماالقينا بقنابلنا على تلك السلحفاة الخضراء الكبيرة ، فقد تجاهلني تماماً وهو يقول « تباً ، لقد قال لي رئيسي بان عملي هو تشغيل جهاز الراديو وليس اي شيء آخر . ماالذي تعتقده قد جعلني اوافق على المشاركة في عمل لعين مثل هذا الذي تنوون ؟ لقد كان مرادي الاستراحة من الحرب الحقيقية .. ها .. هل بقي شيء من ذلك الوسكي ياايرني ؟ ذلك « البلاك أندوايت » الممتاز ؟ » .

وقد ادت محاولة بابا تقليد صوت هامر الى ان يستغرق كلاهما بالضحك ، وان كانت قهقهات مارتي أخفض .

« ولكنني اعتقد انه في حالة جيدة فهو يمتلك تجربة قتالية حقيقية ، ولعله قد برم بالحرب - اي انه مصاب بالارهاق الحربي او ماشابه . وهناك ايضاً ذلك الالتهاب الفطري الذي اتصور انه مصاب به اعتماداً على الرائحة التي تنبعث من قدميه .. انها تلك الفطريات التي تصيب رجال البحرية في المحيط الهادي ، وينبغي لنا عمل شيء بشأنها قبل ان نحشد تسعة رجال في ... » .

- « تسعة ؟ اعتقد انك قد قلت سبعة ؟ » .

- « حسناً . الصبيان .. » .

- « لن تأخذ الصبيين ايضاً ؟ » زعقت مارتي .

- « بالطبع لا ياحبيبتي ، ولكنهم سيكونون معنا خلال الاربعة ايام الاولى من ابحارنا نحو « كايو كونفايتس » التي ستصبح قاعدتنا ، وهناك سنتركهم مع كريكوريو اثناء قيامنا باعمال الدورية خلال النهار .. ومن البديهي اننا لو صادفنا غواصة في طريق الذهاب او العودة من تلك الجزيرة فلن نشتبك معها ، ولكنني لن أدع الصبيين يعرفان هذا ، سأختبر رد فعلهم نحو صيد الغواصات أولاً ، فاذا وجدتهم غير هيابين ، فانه سيكون امراً مسلياً عندما ادعهم يشعرون بانهم سيشاركون مثل البحارة الحقيقيين في قارب كيو »[٢١] .

وكان هذا ماحصل بالفعل ، وكان مكاني في المقدمة حيث استلمت بندقية أبي القديمة من طراز « مانلشرشوناور » التي كان يستخدمها لصيد الاسود في افريقيا ، وكنت أشعر بالفخر

---

(٢١) « قارب كيو »مركب يتنكر كسفينة تجارية او قارب صيد لخداع الغواصات المعادية ويجعلها تقترب ضمن مدى نيرانه .

الشديد وانا اسندها على كتفي ، ولكنها كانت تصدر أصواتاً مزعجة ، وترفس بقوة ، لذلك لم اجربها اكثر من مرة واحدة ، كنت امكث في المقدمة واجرب الرمي ببندقية من عيار « ٢٢ » بالتصويب على السمك الطيار المرتعب من الزورق الكبير ، والذي يقفز عالياً فوق صفحة الماء ويبقى معلقاً في الهواء الى ارتفاع خمسين ياردة ، وفي بعض الاحيان فقد كانت تمس المياه ثانية بزعانفها لتعاود الانزلاق في الهواء فترة طويلة ، ولقد كانت هدفاً ممتازاً للتصويب اذ تستطيع ان تعرف دائماً فيما اذا كنت قد نجحت في اصابتها ام لا . وقد تعلمت وقتها بأنه يتوجب التصويب أمام الهدف المتحرك حتى عندما يكون بعيداً جداً عنك .

كان البحر عالي الموج عندما غادرنا هافانا باتجاه الساحل الجنوبي لكوبا وجزر « كونفايتس » ، وكان الزورق يتقافز على الأمواج ، ولكن ، وبعد مسيرة نصف ساعة ، فقد اخترقت صيحات كريكوريو رتابة صوت الأمواج « سمك بابا ، سمك ! »

قفز بابا تحت الجسر المعلق بينما التهمت السمكة الطعم مع مخالب الصنارة . نزع بابا العائق عن بكرة الحبل تاركاً له المجال للانفلات بحرية وهو يردد « شمبانزي واحد ، شمبانزيان ، ثلاثة شمبانزيات ، اربعة شمبانزيات .. » حتى العد الخامس عشر .

ولقد رفع بابا السمكة الى سطح القارب في غضون ثمان عشرة دقيقة بالضبط ، وكانت من فصيلة المرلين ، وتزن حوالي ستمائة ليبرة .

سلخ كيكوريو منها بعض الشرائح ، والقينا البقية الى البحر ثانية ، وبعد ربع ساعة تقريباً سمعنا صيحة ثانية ، وكانت سمكة مرلين ايضاً . وقد لاحظت ان بابا لم يعد اكثر من الخمسة قبل ان يسحب الحبل مما دفع المرلين الى التقافز كثيراً بحركات مروحية عالية جميلة ، تتلوها بقفزات تشبه حركات راقصي الباليه ، فوق الماء وتحته ، ثم فوقه ، وهكذا بخط مستقيم طوله ثلثمائة قدم . كان ذلك أقصى ارتفاع اشاهد فيه سمكة تقفز طيلة حياتي .

كانت السمكة هذه المرة أصعب على بابا من سابقتها ، لأن الصنارة كانت غائرة في فمها بسبب عدم انتظاره مدة كافية قبل سحب الحبل . واخيراً فقد أفلح في اصعادها الى القارب ، ثم قام بعمل شيء لم أره يفعله من قبل ، فقد أمر كريكوريو باطلاق سراح السمكة .

« سنتذكر تلك القفزات الرائعة دوماً » قال ابي ، « انني افضل إطلاق سراحها واعادة الحياة اليها لتتمتع بها على « تخليدها » بصورة فوتغرافية » .

وفي اليوم التالي شاهدنا حوتاً من نوع القرش ، وهو من اضخم الاسماك البحرية اذ يبلغ طوله ستين قدماً ، وتغطي ظهره البقع البيضاء والسوداء . وكان يعوم على سطح البحر ،

لطيفاً ، وغير مؤذ البتة ، ولقد مر زورقنا الى جانبه تماماً ، وحاول كريكوريو طعنه في جنبه لجعله يتحرك ، ولكنه كان كمن يلكز جداراً أصم .

ـ « بحق المسيح ، ان ذلك الحيوان لهائل » .

ـ « نعم ، » قال ابي ، « حوالي ثلث طول الغواصة التي عنها نبحث » .

وقال لنا بابا بأن ذلك الحيوان العملاق يتغذى على العوالق فقط ، تلك الكائنات الصغيرة العائمة في مياه البحر التي يبتلعها ويتولى نخلها بواسطة جهاز خاص في خياشيمه ، ولقد اعجبني نمط تغذيته هذا ، فهذه الحيوانات الكبيرة ماكانت لتستطيع المطاولة في الصراع وهي على هذه الشاكلة لو انها كانت مضطرة الى اصطياد الاسماك الاخرى السريعة الحركة .

وفي اليوم التالي شاهدنا مجموعة من الحيتان القتالة ، ولم أستطع اولاً التعبير عن شعوري نحوها ، ولكنها بدت لي بعد تأمل طويل وكأنها التعبير الامثل عن كل شراسة الطبيعة . وفي البداية بدت لي كحيوانات مخيفة ليس الا . وقال ابي انه يتوجب علينا ابقاءها ضمن مسافة فاصلة كافية لأنها مشهورة بهجومها على قوارب الصيد وتحطيمها لها برؤوسها المطرقية ، بل وحتى أكلها لبحارتها . وقال أيضاً ان من عادتها الدخول في سرب من أسماك التن فتفتك بها لأجل القتل ليس الا دون ان تتوقف لالتهام ضحاياها .

وليست الحيتان القتالة كبيرة الحجم جداً لو قارناها مثلاً بحيتان البال حيث لايزيد طولها على الثمانية عشر أو العشرين قدماً ، ولكنها تمتاز بسرعتها المذهلة مثل السلاحف البحرية حيث تدأب على الحركة الجماعية المنتظمة جيئة وذهاباً مخترقة المياه جمعاً ، ومستديرة باتساق وتناغم ، وخلال كل ذلك فهي دائبة النشاط والتصيد . وتذكرني هذه الحيتان القتالة بكلاب برية شاهدتها عندما كبرت في افريقيا حيث كانت على اهبة الاستعداد دوماً للتحرك والقتل . وبوسع المرء ان يدرك حالاً مقدراً ماتحتاجه تلك الحيوانات من لحوم الطرائد كي تستطيع ادامة وتغذية تلك السرعة الخاطفة التي تتميز بها .

وفي المساء كنا نلجأ الى احد الثغور او الموانىء . وفي الليلة الاولى ، قيض لي النوم في مقصورة تحتية الى جوار « هارمر » وكانت رائحة قدميه مريعة . وقبل أن اغادر ذلك المكان كنت قد رميت فوقه كل ما صادفني من الشراشف هناك ، ولكن ذلك النغل المسكين لم يحس بشيء ابداً فقد كان في حالة مستديمة من السكر منذ السادسة . وعندما كنت اصعد الى سطح القارب للتنفس ليلاً ، كان منظر السماء جميلاً بحق ، حيث يكون بوسعك رؤية النجوم وهي تبدو اللمع في عليائها ، خصوصاً عندما تراقبها وانت على سطح الماء بعيداً عن البيئة الملوثة ، ولابد ان عددها

يزيد على البلايين ، وبعضها اشد بريقاً بكثير من غيرها ، كان لِيات مهتماً بالفلك فزودني ببعض المعلومات عن نجوم منطقة الجبار[22] وغيرها من التجمعات النجمية ، وقد حاولت التقاط النجمة القطبية ولكن عدد النجوم كان كبيراً هناك بحيث انني لم أستطع التيقن من عثوري عليها .

كان بابا قد جلب لِيات تلسكوباً جميلاً جرياً على عادته في تشجيعه لهواياتنا ـ ولكنه لم يكن يهتم بالفلك ، وكان يقول ، ليس لِيات بطبيعة الحال ـ « انها بالتأكيد موجودة هناك في العلا ، وهي جميلة ، وتساعد كثيراً في الملاحة البحرية ليلاً ، ولكن الذي يبدو لي هو ان تكريس عمر الانسان لدراستها يشبه عمل شيء غير مثمر ، اذ كيف يتأتى لتلك النجوم ان تفيدنا اكثر مما تفعله الآن . ان مراقبة النجوم عمل لايمتلك اي معنى يتجاوز المدلول اللفظي للمصطلح فحسب » .

وفي اليوم التالي ـ وهو اليوم الثاني لابحارنا ـ بدا الحيد البحري جميلاً ايضاً ، فلاح لنا شبيهاً بمنسرحات فلوريدا في الايام الخوالي ، وبألوان وظلال لوحة « تيرنر »[23] ، حيث تتجمع أسراب النحام في المياه الضحلة ، وترتفع احياناً وكأنها سحابات وردية متماوجة تطفو فوق ضباب الصباح الباكر الذي يغطي صفحة المياه . كان المنظر يبدو وكأنه فجر الخليقة ، وقتها كان بابا ينغمس في مزاج ديني .

ـ « هل بمقدورك أن تمتع ناظريك بمنظر كهذا ثم تشك في وجود الله ياگگ ؟ » كنت اعلم بانه لم يكن يتوقع مني رداً .

ـ « ولكنني شاهدت مناظر مختلفة أيضاً ، « استمر بابا » ولعل الله يعاني هو الآخر من الاوقات الصعبة والسعيدة .. » .

ـ « كنت أتصور ان من الكفر ممازحة الله مثلما علمتني » ، قلت انا .

ـ « انني امزح كثيراً عندما يتعلق الأمر بالدين المنظم لأنني لا أظن ان كهنة الانجيل يمتلكون « الكلمة » اكثر مما افعل انا . لن امازح الرب عندما يكون ، مثلاً ، على الصليب ، ولكنني ساحاول ممازحته ، لو صادفته يلاحق المضاربين بالبورصة خارج المعبد » .

ـ « ولكن اياك والهزء من دين شخص ما أمامه ، » حذرني بابا ، « فالكثير من الناس يجدون الراحة في دينهم ، ومن يدري ، فلعلهم على حق في ذلك » . عندها اصطدمنا بالقاع !

---

(٢٢)ويدعى ايضاً حزام اوريون وهو تجمع نجمي كائن الى الجنوب من كوكبة الجوزاء والثور ويشتمل على انجم براقة هي منكب الجوزاء ورجل الجبار وسدم غازية كبيرة .

(٢٣) جوزيف مالورد تيرنر (١٧٧٥ ـ ١٨٥١) رسام انكليزي .

ـ « ياللمسيح ! » صرخ ابي واوقف كافـة المكائن فـوراً ، ووضع پيـلار في الاتجاه المعاكس ، وعاد الى المياه العميقة بهدوء بينما كانت اللوالب تضج وسط الطين مصدرة أصواتاً مخيفة كما لو كان القارب يقاسي آلاماً بشريه ، لقد كان بابا يحب پيلار كثيراً ، لايفوقه في ذلك سوى حبه لنا ولزوجته وقططه . ولقد اصبت بالغثيان عندما انهمكنا بفتح كافة اغطية الارضية لنرى فيما اذا كانت المياه تنز الى عنبر المركب ام لا .

غير انه لم توجد هناك أية منزات والحمد لله ، وقال بابا بأن خطأ طفيفاً قد ظهر في جدول اعماق الجزر فقد أعطىٰ عمقاً اكبر مما هو عليه بثلاثة اقدام ، اذ تزحف الرمال احياناً دون سابق انذار كما تؤثر عوامل التعرية على معالم القيعان البحرية ولكن الواضح ايضاً هو أن بابا كان قد اقترف خطأ بسيطاً هو الآخر .

وصلنا كايوكونفايتس قبيل الظلام . ولاتزيد مساحة هذه الجزيرة بأكملها على ساحة التزلج قرب « روكفلر سنتر » ولعل قطرها لايزيد على المائة قدم . كانت ارضاً مستوية وغير مأهولة فيما عدا كوخ في الوسط مزود بهوائي راديوي على قمتـه ، وبساريـة علم كبيرة الى الجانب .

كان علم كوبا يرفرف عالياً ، غير ان ثلاثة رجال صغار يعلوهم السأم تقدموا من الكوخ عند الغسق ، فلوحوا لنا ، وانزلوا العلم باحتفال كبير بعد ان تكفل أحدهم بسحب الحبل ، اما الضابط ـ الذي يمكن تشخيصه من الضفيرة المتسخة الملصقة بانسياب الى احدى كتفيه ـ فقد وقف في وضع الاستعداد ، يليه جندي ثالث يشمخ بانفه عالياً .

ولقد كان بوسع بابا أن يلاحظ بأن پات وانا ماكنا كثيري التحمس لفكرة تمضية فترة شهرين في هذه الجزيرة المهجورة ، لذلك فقد حاول من فوره اثارة حماسنا قائلاً :

ـ « اعرف انها تبدو كئيبة ياأولاد ، كما انني لست سعيداً بالمرة لاضطراري لتركِكم طول النهار عندما نخرج لأعمال الدورية ، غير انه تتوفر هنا حيود صخرية ممتازة للصيد تحت الماء بالرمح ، (ارتعشت عضلات وجهي بشكل لا ارادي عند ذكر الغطس تحت الماء) كما ان هناك الكثير من الطيور التي تستحق التشخيص ياپات ، وبامكانك انت ياگگ ان تصطاد الطيور للاكل ايضاً ، وسنستمتع في الامسيات بالقراءة ولعب الورق . وكما ترون فلن يكون الأمر سيئاً جداً » .

امضينا اليوم التالي ، پات وانا ، في صيد السمك وجميع محار البحر وفي الغطس ، بينما ذهب ابي في دورية قتالية . ولقد مكث معنا « گريگوريو » الذي كان له ستة اطفـال ، وكان

يجذف الزورق الصغير الذي يقلنا الى پيلار في المساء عند عودة بابا . كان الارهاق قد أخذ من بحارة پيلار مأخذاً كبيراً ، ولكنهم كانوا في مزاج رائق عجيب . جلسنا حول بعضنا نلعب الورق ، ورحنا نراهن كما لو كانت لدينا آلاف الدولارات ، وبد الامر ممتعاً عندما تكون اوراقك جيدة .

وفي البداية لم يتناول البحارة الكثير من الخمر على غير عادتهم ، ربما بسبب ان احتياطينا من الكحول كان قليلاً ، او لأن البحارة شاءوا البقاء في حالة من الاستعداد الجسدي تحسباً لاحتمال اكتشافهم غواصة ما . وامضى والدي الوقت في قراءة الكتب أكثر من الاستمتاع بالشراب فقد جلب معه حقيبة مكتظّة بالكتب البوليسية وبـ « الحرب والسلام » و « الغصن الذهبي » لفريزر .

وتوفر لنا خنزير في الجزيرة احتفظنا به لعمل وليمة هناك . وفي احد الايام وبينما انا اقوم بالغطس لصيد الاسماك دهشت لرؤيتي له وهو يعوم مبتعداً عن الجزيرة ويغيب في الافق ، ولم يكن بمقدوري عمل شيء لأن القارب كان في الجانب الآخر من الجزيرة .

ولم يستطع احد ان يبدو أكثر لطفاً وتعاطفاً من بابا خلال تلك الرحلة ، فقد كان بشوشاً مع الجميع اذ لم يكن اضفاء مزاج رائق على عدد كبير من الرجال المحشورين في مركب واحد بالأمر الهين . وكان بوسعه التحدث في مواضيع تثير اهتمام مختلف افراد طاقم پيلار ، اما موضوعي المفضل فقد كان البيسبول . وفي احدى المرات اختلفت مع « نفيل » حول معدل ضرب الكرة عند « كاي كولن » خلال حياته كلاعب بيسبول فقال نفيل :

ـ « اراهنك بمائة دولار ان الرقم لم يكن كبيراً بقدر ثلاث مرات سبع وستين » .

فحدقت في عينيه وقلت :

ـ « ياپات ، إنني لاحب أن أسلبك مالك » فضحك بابا واستحسن كرمي .

كان الامر رائعاً أول الامر الى ان استطاع « هامر » كسب أموال الجميع في لعب الورق وانتهت الكتب ، وبدا واضحاً ان المحيط المائي شاسع جداً في المنطقة ، وإن احتمال اكتشاف غواصة المانية فيه مسألة صعبة .

ولقد تواجدت الغواصات الالمانية في المنطقة بالفعل ، وكان بمقدورنا سماعهم يتحدثون بالالمانية بشكل واضح طوال الليل ، الا ان جهلنا بلغتهم جعل التقاطنا لاشاراتهم أمراً غير مفيد . وعلى أية حال ، فلم يكن لدينا جهاز احداثيات خاص لتثبيت اماكنها تحت ، كما لم تكن الغواصات تطفو في النهار ، وأحمد الله انها لم تفعل لأن ذلك ربما كان سيؤدي الى ان ابقى في

تلك الجزيرة المرعبة حتى وقتنا هذا ، أقتات على المحار ، واراقب الكوبيين وهم يرفعون وينكسون علمهم .

وبينما نحن في كونفايتسن ، وردتنا رسالة من الاستخبارات البحرية توجه اهتمامنا للتحري عن بعض الكهوف الكبيرة حيث يشاع أن الغواصات الالمانية كانت تستخدمها كمخازن للتموين « كهوف كبيرة ، مثل كهف « ماموث » في « كنتكي » مشحونه بالوقود والمقانق والبيرة الباڤارية والكروت ! كما يمكن ان يوجد هناك وسكي ايرلندي ايضاً » اقترح ابي .

وفي خضم الاهتياج والاثارة ، فقد تساوقت مخيلتي مع افكار الاستخبارات البحرية ، اذ رحت اتصور مبلغ صعوبة اختراق تلك الحصون بكل من فيها من الحراس الالمان ، واتخيل نوع التكتيك المطلوب للقيام بالمهمة بنجاح : الهجوم المظلل ، او ، اذا دعت الحاجة ، الهجوم الدبر المباشر الذي يحدث انقلاباً في الموازين ويحرم الالمان من كافة تمويناتهم .

وكنت أعرف مبلغ اهمية البيرة في رفع معنويات البحارة ، فقد عانينا مرة من نفاد وقتي في الشراب عندما تأخر قارب التموين اسبوعاً عن الجزيرة . كان هامر قد بدأ بالارتجاف منذ صباح اليوم التالي ، وراح يتخيل الاشكال ويهلوس فاضطررنا لحبسه اذ لايجوز التهاون في مثل هذه الحالة ، فيما كان « باتشه » و « ارموا » ـ لاعبي خاي ألاي ـ يتهامسان في الخفاء حول ضرورة التمرد والاستيلاء على المركب والتوجه به نحو الشمال الشرقي حيث يوجد أقرب بار .

« تشجعوا ياأولاد فسيأتي الفرج قريباً بعون الله » . قال بابا ، ولقد وصلتنا معونة الله على شكل رسالة راديوية بعد أن كنا على وشك مهاجمة كوخ الكوبيين والاستيلاء على مقطرهم المحلي .

ـ « اسمع يانفيل . ان هذه الرسالة قادمة من الاستخبارات مباشرة ، ولابد انك تقدر أهميتها . وستتولى بنفسك قيادة فريق الاستطلاع ، مع إرموا كضابط اداري ، والاولاد كمساعدين حيث سيكون بوسعهم الدخول عندما تضيق مداخل الكهف » .

ولم يكن اكتشاف مكان الكهف امراً صعباً ، فقد كان أحد المعالم المحلية التي تثير اهتمام السواح ، وتكفل بقيادتنا اليه طفل صغير باسم ، ولم يكن هناك اي حارس في المدخل ، فولجناه بسرعة ، وكم كان المنظر رائعاً امامنا حيث واجهتنا قبة تحت أرضية هائلة يزيد ارتفاعها على المائة قدم ، مع اعمدة « ستلاكتايت » زاهية الالوان تتدلى من القمة ، وكانت الاضاءة قوية

نظر بابا بالمنظار .

ـ « انها بعيدة جداً عن موطنها ! » قال بـابا « لنخفف السـرعة ونـرىٰ ماوراءهـا ، وسيغتبط الاولاد بمراقبتها » .

ولابد ان ابي قد لاحظ مبلغ ثمالتي لذلك فقد قال :

« حان الوقت لتتناول قدحاً من القهوة ياگگ ، هه ؟ اسرع بالنزول وابدأ بتحضيرها في المطبخ » .

وعندما تسلقت الى السطح مع قدح القهوة ، كان جسم المركب الشراعي الكبير قد بان واضحاً . كانت الزوارق الثلاثة قد ابتعدت عن الام ، وكان احدها محملاً بشيء ما اسود اللون يحير الناظر اليه . وعلى مبعدة اقل من مائة قدم كان بحارة المركب الشراعي يطوون الشراع ، فحيانا احدهم بالاسپانية :

ـ « صباح الخير ياأصدقاء ، هل تريدون سمكاً ؟ » .

ـ « نحن نصيد السمك ايضاً ، » رد بابا « هل تحتاجون الى أي عون منا ؟ » .

ـ « هل يسعكم ان تساعدونا في تشبيك هذا الحيد ؟ » .

ـ « ارم لهم بالحبل ياپات ، وانت هناك ، ارم حبلاً آخر الى امام » .

وفي غضون دقيقة واحدة ، كان جميعنا يتحرك بسرعة ، وبينما كان گريگوريو يناقش ووالدي عملية نشر الشباك مع القبطان ، تسلق بقية بحارتنا متن السفينة الشراعية ، واعجبوا بحجمها الكبير . كان اسمها « ماركريتا » وقد أبحرت من هافانا فقد استطاع گريگوريو ان يتعرف على شقيق القبطان .

فجأة سعل بابا بصوت عال ثم بصق وتهيأ لمخاطبة بحارتنا :

ـ « كاباليروس » ـ ، وضحك وهو يتفوه بها ، ولقد ادركت مبلغ ارتياحه اثر تناوله اول كأس له من الجن والتونيك لذلك اليوم بحيث انه اصبح يسمي بحارته « فرساناً » .

ـ « لقد وجهت الينا الدعوة لتناول طعام الافطار هنا ، بعدهـا نقوم بمسـاعدة طاقم السفينة في عملية نشر شباك الصيد ، واعتقد ان هذه المهمة تتطلب اجادة السباحة ، لذلك فلن يشارك فيها من لايجيدها . اما باتشه فلن يستطيع ان يشاركنا هو الآخر لانه يمتلك اقوى عينين وسيعاوننا كمراقب للغواصات ، ولقد اخبرت قبطان المركريتا بأننا ننتظر وصول زورق المؤونة ، واننا بحاجة لاستبقاء مراقب في مركبنا اذ ربما لن يستطيع ذلك الزورق ان يشاهدنا بسبب كبر حجم المارگريتا » .

وبدأنا ، پات وانا ، بالتفرج على المرساة الكبيرة للماركريتا ، بينما ذهب ابي للتحدث مع القبطان ثانية .

ـ « ياأولاد » صاح بابا « تعالوا وقابلوا القبطان « مارينا » انه يقود سفينته الكبيرة . وانتم ضيوفه الآن . لاترموا أي شيء على متنها ، وحافظوا على نظافة المكان مثلما هو عليه الآن » .

تصافحنا مع القبطان بوقار ، فابتسم لنا ربما بسبب وقارنا .

ـ « هل بامكاننا التفرج على عملية نصب الشباك ؟ » سأل پات .

ـ « التفرج ؟ الى الجحيم ! » تلك كانت المفاجأة التي ادخرها لنا بابا : « ستساعدون في نصبها ياپات حيث ستصبح السفينة قاعدتنا لهذا اليوم ، اذا ماشاهد الراصد أي شيء فبوسعنا العودة الى پيلار ومحاولة التقرب منهم .. (قهقهت قليلاً لدى ذكر الراصد ، فحصلت على شزرة قوية من ابي الذي كان مايزال يؤمن بمهمتنا ايماناً يشبه الحلم ، ولعل قوة ايمانه وكبريائه كانت العامل الوحيد الذي أمّن حفظ النظام بين بحارتنا المتخاذلين) .

« ربما جلبت لنا الماركريتا الحظ السعيد » قال وهو يحدق بي بعيون تقدح شرراً .

ان عملية نصب الشباك في الحيد مسألة سهلة ومعروفة قامت بها كل الشعوب البحرية بدءاً بالفينيقيين طوال آلاف السنين ، وقد حملنا شبكة كبيرة جداً في ثلاثة زوارق ، وبدأنا بالقائها تدريجياً في المياه حتى احاطت بالحيد ، وكانت الطوافات الفلينية تبقيها عائمة في احدى النهايات ، فيما كانت الاثقال الرصاصية تنزلها الى القاع عند النهاية الاخرى .

ثم بدأنا باستعادة الشبكة ونحن نقف على الصخور أحياناً ، او نتعلق بها للاستناد وكنت انا اسبحها غاطساً لتخليصها عندما تتشابك مع المرجان الحي .

كان الشيء الوحيد الذي يقلقني هو اسماك القرش فقد كنا قرب حافة تيار الخليج ، وكنت انا بعيداً عن بابا طول الوقت ، ولذلك فقد استفسرت منه عن احتمال تواجدها في الجوار عندما لاقيته أخيراً .

ـ « انك لقبيح حقاً ، ستخيفهم جميعاً ياكگ » قال ذلك وهو يخفف مشاعر الخوف عندي والتي تعود الى احداث الصيف الماضي ، ثم ، وعندما ادرك انني لم اطمئن تماماً ، فقد قال بجد اكبر :

ـ « مع كل ضياء الشمس هذا فان بمقدور القروش رؤية الشباك واضحة في المياه باعتبارها ليست جزءاً من المحيط الاعتيادي ، كما ان قروش المياه العميقة حيوانات محافظة جداً » .

بمصابيح تشبه اضواء شجرة عيد الميلاد ، وكان بمقدورك رؤية المكان الذي يضيق فيه مدخل الكهف في النهاية البعيدة المؤدية الى نفق مظلم . اذن فالخبيئة تكمن هناك ! ليس الالمان بالقوم الاغبياء الذين يخزنون تموويناتهم الثمينة على الارض المكشوفة ، ولابد ان ذلك النفق يفضي الى كهف ثان توجد فيه التموينات .

استخدم كلنا المصابيح اليدوية لدى توجهنا نحو النفق الذي بدا وكأنه يمتد أميالاً في العمق ، ولقد جرحت يد ارموا بصخرة حادة ، ولم يستطع نفيل ايقاف النزيف ، لذلك فقد اضطر ارموا الى التوقف والعودة ، ولكننا واصلنا التوغل في الكهف نحن الثلاثة ، ولقد ارهقني السير والزحف والتسلق طوال ماكان يبدو ساعات باكملها ، ثم اصبح الكهف ضيقاً لدرجة تعذر فيها على نفيل مواصلة التقدم بجسده الضخم .

ـ « واصلوا السير حتى النهاية ياأولاد ـ هذا اذا كان هناك نهاية ما . حظاً سعيداً وانا على يقين من انكم لن تتقاعسوا اذ لابد انكم تعرفون قيمة اكتشاف المخبأ » .

واصلنا التقدم الى امام واكفنا مدماة من مسك الصخور الحادة ، ثم ضاق الممر فلم يعد بمقدور احد غيري النفاذ منه ، ثم انتهى المنفذ ، اذن فهذه هي النتيجة : فشل ذريع .

ولكن ماذا كان يوجد هناك ؟ زجاجة بيرة ، لا ، ثلاث او أربع زجاجات في الواقع . لقد كانت القناني فارغة ولكن علامتها التجارية كانت المانية بالفعل ، من صنف « شلتز » . اذن فقد جاء الالمان الى هنا ، ولابد ان المخبأ موجود في واحدة من مئات الممرات الجانبية في النفق ، ولن نستطيع تفتيشها كلها في هذا اليوم ، وهكذا فقد أخذت القناني وعدت .

وعندما وصلنا پيلار كان الوقت قد جاوز الغروب .

ـ « حظاً سعيداً ياأولاد ، ماالذي وجدتم ؟ » تساءل بابا ، ثم شاهد الابتسامة مرتسمة على محياي وادرك ان وراءها امراً فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

ـ « لقد عملتها ياگگ ، لقد عملتها ! دعني ارى ماالذي حصلت عليه . »

سلمته القناني الفارغة ، ولكنه ما ان اشعل مصباحه لتفحصها حتى اختفت الابتسامة عن وجهه .

ـ « انها قناني بيرة المانية فعلاً ، نعم ، ولكنها مصنوعة في الولايات المتحدة من قبل امريكيين من أصل الماني ، ولعلها قد تركت هناك من قبل بعض المتنزهين » .

واجهشت بالبكاء ، كما دمعت عينا هامر ايضاً ، فالتفت بابا نحوه وقال :

ـ « لقد انجزت افضل عمل لك ايها العجوز ، وانا فخور بك . وسأرشحك لنيل وسام

صليب البحرية لقيادتك الناجحة لهذه البعثة ، وكذلك ـ وضحك ـ للانتقال النهائي الى سلك الاستخبارات البحرية ! » .

ولقد وضعت قدم هامر نهاية لتلك المهمة ، إذ استفحل الالتهاب الفطري فيها ، وبلغ حداً جعله لايستطيع ارتداء حذائه البتة مما جعل منظر قدمه ورائحتها مصدراً لشقاء كل واحد منا ، وكان ذلك أول شعور طيب من قبلنا نحوه منذ ان كسب جميع نقودنا .

وكان بابا ـ الذي يمتلك بعض المعلومات الطبية ـ يخشى ان يؤدي تطور الالتهاب عنده الى بتر ساقه ان لم يحصل على العلاج في الوقت المناسب ، لذلك فقد اجل عملية المطاردة ، وعدنا الى هافانا ، ولم يظهر احد من العسكريين الكوبيين المتواجدين في الجزيرة اي تعاطف معنا عندما علموا بقرار المغادرة فقد كانوا غير مهتمين بنا ، اولئك المساكين .

وفي رحلة العودة كان معظمنا متوفزاً ، فعلى الرغم من ان غياب النساء لم يكن ليزعجني انا ، غير ان الرجال الآخرين لم يكونوا يتحدثون عن أي شيء آخر ، الامر الذي بدا لي سخيفاً .

ـ « تالله كم انا ملهوف لماريا » قال باتشه أحد لاعبي خاي الاي ، « انها تحبني بالفعل وتصلي لعودتي سالماً في كل ليلة . انها قديسة تلك المرأة فهي تواظب على حضور القداس كل يوم احد ، وتصلي على روح امها المرحومة ايضاً » .

وكنت قد التقيت بماريا في حفلة أقامها أبي للاعبي خاي الاي ، لم تبدو لي اكثر من عاهر عجوز رثة ذات وجه بدين وافخاذ ثقيلة ، ولكن باتشه كان قد وقع في المصيدة فلقد ذكر لنا بأنه قد امن على حياته بحيث تحصل ماريا على مبلغ التعويض في حالة حصول اي مكروه له . وكان كلاهما يتصور ان ذلك عمل حصيف بالفعل .

غير ان الامور كانت واقعية ومشوهة في كايوكونفايتس ، وكنا تواقين للعودة الى البيت .

وفي الصباح الباكر لليوم الثاني من سفرة العودة ، صاح أبي من على الجسر المعلق :

ـ « الى السطح ياأصدقاء فهنالك مركب شراعي راسٍ على الحيد المرجاني » .

ـ « مركب شراعي راسٍ » صحنا من الأسفل للاعلان عن سماعنا بالأمر ، وفي أقل من دقيقة كنا قد صعدنا الى السطح متثائبين ونحن نلملم قمصاننا المفتوحة ، ونتطاول على جدار المركب .

كنت مازال في غمرة النعاس ، ولكن كان بامكاني الاستمتاع بالاشعاع البرتقالي المنبعث ببطء والضباب المعلق فوق صفحة المياه . كان المركب الشراعي يرسو في الجانب المحجوب عن الريح من الحيد الصخري ، والى جانبه ثلاثة زوارق صغيرة مليئة برجال يقومون بعمل ما .

وقبيل نهاية النهار كانت الشبكة قد جرىٰ سحبها فأصبحت بقطر ثمانين ياردة تقريباً ، وكان بوسعنا مشاهدة مابدا وكأنه كافة أنواع الأسماك في المحيط في ذلك الوعاء ، وكانت مهتاجة جداً ـ ربما لأنها قد « أدركت » أن شيئاً ما سيجري لها ، إذ لم يكن ذلك النهار يوماً اعتيادياً بالنسبة اليها .

ولاخراج الأسماك من جحورها في المرجان ، كنا نطرق على جوانب الزوراق . وقد نزل العديد من امهر السباحين في الماركريتا وغطسوا طويلاً حتى القاع لنشر شبكة اصغر تحت الاسماك التي جرى اخراجها من المرجان ، وقد تم اخلاؤها سريعاً بعد ذلك .

راقبنا ، پات وأنا ، عملية رفع الشبكة الكبيرة تدريجياً ورؤوسنا تحت المياه . تحرك سرب من سمك « چاك » في رتل الى الاعلى ثم غادر المكان . بعدها بدت السلاحف والقروش الصغيرة والمتوسطة الحجم تأتي من كل صوب ، ولقد التجأت الآن كل الاسماك الى الحركة للتملص من الشباك .

صعد پات الى السطح وتوجه الى پيلار .

« اريد جلب آلة التصوير لهذا المنظر » ، قال « هل سبق وان شاهدت مثل هذا الحشد من الاسماك في مكان واحد ؟ » .

وكان بمقدوري بسهولة التقاط الحشود الدوارة من سمك جاك ، والتجمعات الكثيفة للسمك النهاش ، والاسماك الحيدية الجميلة ، والبنبان المحيطي وكلها تقفز في الهواء عالياً وهي ترتجف رعباً .

ومع الأسماك الصالحة للاكل ، التقطنا الباركودا التي بدت مثل غيرها من الاسماك بلا حول ولا قوة ، فقد كانت هي الاخرى مرعوبة من اقتراب تلك الغمامة السمراء الطويلة من الشبك الذي يبلغ سمكه بوصتين والمطبق عليها من كل صوب .

ـ « تعال هنا ياگگ ! » .

ركضت نحو بابا . كان بحارة السفينة الشراعية يغترفون اولى الاسماك بشباك لولبية ممتدة في نهاية اعمدة طويلة ، وينقلون احمالهم المتخبطة المتلوية الى باب العنبر . كان أبي يحمل سمكة صغيرة يقل طولها عن الانجات الستة سقطت من احدى الشباك المارة به . كانت لها عينان كبيرتان ، وانف جنيني ، وفم ، وزعنفة تمتد على طول ظهرها حتى ذنبها تقريباً .

« جميلة ، اليس كذلك ؟ » قال بابا ، « هذه اول مرة اشاهد فيها واحدة بمثل هذا الحجم الصغير . ان سمكة كهذه ستصبح بعد سنين قليلة سمكة شراعية ضخمة تزن خمسة

وسبعين رطلاً . لم لاتأخذها الى پيلار وتضعها في احدى قناني النماذج ياكگ ؟ فاذا لم تكن مفيدة لدارسي الاسماك فانني ارغب في عرضها للفرجة » .

وجرى في غضون نصف الساعة التالية نقل الاسماك الكبيرة السريعة ، وقد فقدنا عدداً منها عندما قفزت الى الحرية . واخيراً جاء دور القروش الثلاثة الاخيرة . كانت كلها تبدو اطول من خمسة اقدام .. لاتوجد قروش هنا ، ها ؟

تناول بحاران شبكة لولبية ، وتابعا احد القروش من الخلف فيما اقترب بحاران آخران من الامام بشبكة ثانية ، واستطاعوا مراوغته بذكاء وتشبيكه من الجانبين ، ثم رفعوه الى السطح . وقبل ان يتسنى لك الوقت لقول « موبي دك[٢٤] » تناول شخص خشن السحنة قدوماً كسر به العمود الفقري للقرش خلف الدماغ قليلاً . كان ذلك عملاً سريعاً مؤثراً يشبه عملية اعدام تنفذها المافيا ، ولكن كان من شأنها ايضاً منع القرش من نهش الارجل العريانة ، ثم قطع لحمه شرائح صغيرة ليصار الى تغطيسه بالماء المالح وتجفيفه بعدئذ .

كان اخر صيد لنا في ذلك اليوم سلحفاة خضراء يزيد وزنها على الثمانين رطلاً ، وكان يمكن للقروش ان تقضم ارجلها لو لم تكن مهتمة بالتفاذ بجلدها اولاً . غطس بحار في الحوض الطائف فامسك بيدي السلحفاة وابعد ذراعيه عن رأسها . حاولت السلحفاة ان تسبح الى الاسفل مخترقة الشبكة ولكن البحار تقدم عليها ، وعندما عام كلاهما ، أمسك بحار ثان بقدميها ، وقام بحار ثالث بربطها كلها ، ثم رفعوها الى السطح حيث استلقت على ظهرها بلا حول ولا حيلة .

ـ « ايها الاصدقاء ، انكم صيادون مجدون حقاً » ، قال القبطان وهو يقترب منا عند سكة الجدار ، فاجابه ابي بالاسبانية الرسمية :

« لقد تشرفنا بحضور هذا العرض الممتاز لمهاراتكم الفنية ، ولقد وددت دائماً ان تتاح لي الفرصة لتعلم طرقكم ، وانني لشاكر لك تزويدك ابنائي بالمعلومات الثمينة ، ونحن في خدمتك ان اردت اية مساعدة اخرى في اخلاء السمك المصطاد الى السطح » .

كان القبطان مارينا بادي السرور ، وتحدث مع أبي مرة اخرى ، فضحك بابا واستدار نحونا قائلاً :

ـ « كلكم مدعو للغداء هنا ، حتى هامر الذي يتعين علينا اجلاسه بعيداً عن مهب الريح .

---

(٢٤) عنوان قصة صيد شهيرة للروائي الامركي هيرمن ملفل (١٨١٩ ـ ١٨٩١) .

ستكون وليمة حقيقية ، وسأشارك بلحم الخنزير والنبيذ » .

ولقد طغىٰ عليَّ شعور رائع بالانجاز الجماعي . كان پات وانا قد عملنا كأعضاء في طاقم الصيد اليوم ، وشعرت بأننا قد أجدنا تماماً .

آه كم هي جميلة حياة البحر على الرغم من خفوت ذكرياتها بمضي الزمن ، ولكن ذلك اليوم كان جميلاً وناصعاً ومليئاً بالحرية الى الحد الذي دفعني الى تمني البقاء طول عمري على سطح الماركريتا .

لقد كان ذلك واحداً من أسعد أيام عمري .

تأخر الجميع في الاستيقاظ صباح اليوم التالي ، ولم يتم الابحار الى عرض البحر حتى بلغت الساعة السابعة ، وكان الجميع يجلس على الجسر المعلق عندما شاهدها نفيل :

ـ « غواصة ! غواصة ! حوالي عشر درجات عن قوس الميمنة . إنها تقترب باتجاهنا . مداها التقريبي الف ياردة . لابد انها قد صعدت الى السطح قبل فترة وجيزة فقد استكشفت تلك المنطقة بنفسي قبل دقائق قليلة فقط » .

ـ « الى مراكز القتال » قال ابي بصوت لايكاد يسمع ، « ولكن خذوا الامور ببساطة ، وتحركوا بشكل اعتيادي من دون ضجة ، كما حاولوا ابقاء وجوهكم طبيعية فنحن لانعرف مدى قوة ناظورهم » .

وعلى الرغم من انني كنت تحت السطح فقد تحركت بسرعة ، فتناولت رشاشة المانلشرشوناور من تحت سريري وحشوتها . كان پات قد اتخذ موضعه على الميمنة قبلي بسلاحه « ليئنفيلد ٣٠٣ » تبادلنا الابتسامات وكنا متحمسين لدرجة اننا نسينا الخوف فالحرب لعبة رائعة عند الاطفال .

غمغم هامر وقال « ان القتال ضمن الأوامر القذرة التي توجه الي » . ولكنه توجه أخيراً الى موضعه .

كانت القنبلة ماتزال في الجسر المعلق فأخذ لاعبا الخاي ألاي يحلان وثاقها .

ـ « بحق المسيح » ، صاح نفيل ، « انها كبيرة مثل سفينة حربية » وكان ينظر في مكبره .

ـ « ولكنها لاتبدو وقد كبرت الآن » ، قال أبي وأخذ الناظور من نفيل ، ثم اعاده اليه بعد ذلك بثوان وهو يقول :

ـ « يانفيل ، انها لاتقترب منا . انها تنسحب بعيداً عنا » . قال ذلك وهو يسيطر بشكل

حاد على صوته البارد ، « وليس هذا حسب ، بل انها تدفع نفسها بعيداً عنا . ان سرعتنا القصوى هي اثنتا عشرة عقدة بينما تزيد سرعتها على ذلك بكثير . انها تبدو الآن وقد ابتعدت بحوالي الف وخمسمائة ياردة » ، ثم ضحك وقال بالاسبانية لباتشه : « هل تستطيع قذف القنبلة مسافة الف وخمسمائة ياردة ؟ » .

وقتها لم يعد أحد بحاجة الى ناظور ليعرف أن الغواصة كانت تبتعد عنا بسرعة وهي تتحرك بجلال في أديم البحر الهادىء .

بدأ الجميع بالسباب ، وصاح باتشه : « تعالوا وحاربوا انتم ياأولاد الساقطات الجبناء » وقتها كانت الغواصة مجرد نقطة في الافق . ولقد ادهشنا ذلك ، فقد كان آخر ماكنا نتوقعه ان يجرى تجاهلنا من قبل العدو على هذا النحو .

بعد ذلك ، وفي المساء ، قال لي ابي :

كنت قد قررت عدم وجوب الاقتراب من الغواصة وانتما (يقصد پات وانا) على متن المركب » ، ثم أكمل بصوت أخفض : « اراهن ان بعضاً من بحارة الغواصة هم ايضاً من الاطفال . شيء سخيف ان يتحدث الانسان عن الحرب ، لقد قالها « شيرمن »[٢٥] ولكن الحرب يمكن ان تكون ضرورية في بعض الاحيان ، ولعلها هي كذلك » .

ثم طفق يقلد صوت اصحاب الخطب الرنانة :

« سيحارب عنى آخرون في السواحل . السابع من كانون الاول يوم سيخلد بالعار ، وسيثأرله الشباب . ياللجحيم ! عمّر لي كأس جن بالتونيك ياكگ ، اننا في الطريق الى الوطن » .

---

(٢٥) ريتشارد تكمسه شيرمن (١٨٢٠ ـ ١٨٩١) جنرال امريكي .

زوجات Wives

عندما عدنا الى البيت من عرض البحر ، تصورت مارتي بأن بابا سيعاود الكتابه ، غير ان خططاً اخرى كانت تدور في ذهنه .

ـ « انك انتِ كاتبة العائلة الآن يا مارتي » ، أعلن أبي وكان يعني ذلك من كل قلبه . ولقد شعرت مارتي اولاً بالاطراء ، ثم انقلب ذلك الى الدهشة ، ليتحول اخيراً الى القرف . كانت عملية المساعدة في عملها مسألة طيبة ، الا ان تقاعد افضل روائي أمريكي عن العمل وهو في الرابعة والاربعين ، بعد سنتين فقط على اكماله عملاً من طراز « لمن تقرع الاجراس » ، كان امراً غير ممكن التصور ابداً ، حتى بالنسبة الى امرأة لينة العريكة مثل مارتي .

وكنت أعرف ان ذلك كان قراراً خاطئاً . بل وحتى اهوج . فهل كانت السلبية الشخصية ـ وهي خصلة نشترك فيها جميعاً ـ قد استحوذت عليه ، أم انه كان قد اقتنع وقتذاك بأنه قد بلغ قمته ؟ اي قذف حشوته وانتهى ؟ وانه لن يستطيع لذلك تجاوز الهيه المقلّدين : تولستوي ودوستويفيسكي ، أو حتى الاقتراب منهما ، وان الوضع بالنسبة اليه سيكون الانحدار نحو السفح من هنا فصاعداً ؟ .

بحق المسيح ! لقد كان قد سئم القوائم ، وسئم المنافسة . ولعله كان وجلاً من الدفاع عما اعتاد تسميته بـ « اللقب » مرة أخرى ، وهذا أمر إنساني مفهوم ، غير ان أحداً لم يسمح لأبي بالبقاء انساناً فحسب .

« انهم دائماً يسألونك : ماذا تكتب يا ايرني ؟ » قال لي مرة « فارد على الاغبياء منهم : « اعظم ماكتب منذ عصر شكسبير » وهذا كفيل باسكاتهم . انهم يصدقون ذلك ويبتسمون بفعل الاعتزاز : « هذا هو ايرنينا » اما مع الاذكياء المثقفين فالامر أصعب . فاذا كنت لااحبهم فانني اكتفي بابانة ابتسامة خبيثة لهم مع كلمة « سترىٰ » ، اما مع اصدقائي المثقفين ـ والذين لايزيد عددهم على اصابع اليد الواحدة ـ فانني اكشف لهم عن حقيقة انغماسي في كتابة ثلاثية تتحدث عن الارض والبحر والجو ، وهذا هو ماأقوم به الفعل ، ولكنها لاتسير بشكل طيب . ينبغي على الكتابة ان تأتي دفاقة سهلة اذا كانت جيدة ، وعندها تكون « عبقة برائحة الفانوس » انت تعرف معنى تلك العبارة القديمة ، عبقة بالرائحة كما لو كنت قد امضيت الليل كله في العمل بها تحت ضوء مصباح نفطي » .

« ربما لااكون سائراً على نحو مرض ولكن مارتي تكتب بشكل جميل . انني اعرف الكثير جداً عن هذه المهنة وبامكاني مساعدتها في امور عديدة . ان لها موهبة عظيمة ، وكل ماتحتاجه

هو ناشر عظيم . » وابتسم ليرينا انه لم يكن يتفاخر في واقع الحال . دعنا نعط مارتي فرصة ، فهي تستحقها » .

هكذا كان الامر في الحقيقة . لقد تم تصوير مارتي على الدوام كامرأة طموح اكثر من اللازم ، عمدت الى إهمال واجباتها الزوجية وإهمال إيرنست ، ثم هجرته اخيراً . تلك هي القصة الرسمية التي زُقَّ بها كاتب سيرة حياة أبي « كارلوس بيكر » اعتماداً على رسائل والدي المتأخرة الى أصدقائه ، ولكن دعنا نوضح الحقائق بنزاهة : ان مارتي لم تهجر أبي قط ، بل ولقد أُجبرت على ترك ذلك البيت في كوبا ، نعم ، أُجبرت بالقوة بسبب إستفحال جنون العظمة عند أبي . لقد كانت الفكرة التي استحوذت على أبي بجعل مارتي كاتبة العائلة قد حكم عليها بالفشل ، ليس لأن مارتي كانت تعوزها الموهبة الأدبية ، وإنما بسبب إصرار أبي على أن تصبح الكاتبة « رقم واحد » .

كان ينقلب عليها فجأة ويقول : إذن فانت لاتؤمنين بقدرتي على أن أكتب مرة اخرىٰ ؟ » سمعته يقول لها مرة : « سأريك ايتها العاهرة المتعجرفة ؛ وسيقرأون عملي قبل ان تفرغ الديدان من قضم جيفتك » . ربما كان هذا صحيحاً ، ولكن بحق الله ، اية طريقة كانت هذه التي يتعامل بها ابي مع من يحب ؟ .

ولقد علمت بعدئذ ان القطيعة بينهما لم تكن سهلة ، فطبقاً لأقوال أبي كانت ايضاً مشكلة جنسية أساسية تفسر الكثير من أسباب مشاحناتهما . وكان بالامكان تصحيح ذلك باستشارة الطبيب ، ولكن أبي نادراً ماكان يسلك الطريق المباشر مع زوجاته . لقد كان يعذب مارتي ، وعندما حطم أخيراً كل حبها له وتركته ، ادعىٰ بأنها هي التي هجرته .

وكان أبي قد لجأ الى استخدام تبريرات مشابهة مع أمي ، فقد ادعىٰ بأن ضرورة حصول الحمل عندها هي التي حطمت تلك الزيجة ، غير ان بمقدور اي امرىء ، ناهيك عن كونه ابن طبيب ، ان يعرف حقيقة وجود فترات في الشهر يستطيع المرء فيها ان يحصل على اتصالات جنسية مرضية دون الخوف من حصول الحمل .

وهكذا ، وبعد ان وقع في حب مارتي ، فقد ادعى بأن مسؤولية طلاقه مع امي يقع على عاتق العمليتين القيصريتين اللتين كانتا قد اجريتا لها ، وحقيقة ان الطبيب كان قد نصحها بوجوب تجنب الحمل مرة ثالثة . والشيء الذي يجعل تلك الحجة عقيمة حقاً هو قول أبي ان المعاشرة الزوجية الكثيرة تثبط إنتاج الأدب الرفيع ، أي انه كان يشعر ببساطة ان من الضروري له ادخار بعض رحيقه الخلاق للكتابة .

كان أبي يدع نفسه يعاني طويلاً مع أية امرأة تثير عنده المشاكل الجنسية ، ولكنه كان يجعلها تعاني أكثر في النهاية .

ففي إبان الثلاثينات كان بابا قد اعتاد على إيلام أمي بقسوة في هافانا مع إحدىٰ صديقاته الأمريكيات ، حيث كان يتمتع معها كثيراً بحيث لم يبق لديه مايعطيه لأمي ، وكاد في احدى المرات أن يكسر إصبع قدمه عندما قفز من شباك الفندق عقب وصول امي الى ذلك المكان بشكل غير متوقع .

تباً لكل تلك الزيجات . لقد كانت أمي على صواب عندما قالت : « لست أُبالي بوقوع ايـرنست في حب غيري من النســاء ، ولكن ما الذي يجبـره على الزواج كلمـا وقع في حب امرأة ؟ » .

لقد كان يشعر بالسأم بعد مضي فترة على زواجه من امرأة ، واعتقد أن هذا هو شعور معظم الرجال ، ولكن الأمر يكون أكثر حدة مع الفنانين الخلاقين لأن وجودهم ذاتـه يعتمد الالهام ، ولذلك نجدهم بحاجة مستمرة الى محفزات وتجارب جديدة تؤجج قواهم الخلاقة .

والمشكلة هي ان معظم الناس لايستطيعون تبرير الإتلاف العاطفي المستمر للآخرين ، ولم يكن أبي استثناءً . كان الزورق المرحلي للطاقة العالية الخلاقة يترك الكثير من ثمالات الندم وتبكيت الضمير في كل مرة ، حيث ترمىٰ جانباً أجساد اخرى بعد كل طلاق . غير انه بقي هناك شيء ما يبرر له اعماله ويهمس له في اذنيه : « انك خارج نطاق القانون الذي لاينطبق إلا على البشر الاعتياديين » .

ان النساء ، معظمهن على الأقل ، لايلجن قفص الزوجية كما لو كان الأمر مثـل نقلة عارضة في سيارة لقطع مسافة ما . انهن عندما يتزوجن يكون الزواج بالنسبة لهن السفرة البعيدة الكبيرة الوحيدة ، خصوصاً عندما يوجد هناك أطفال ، وعندما تتوقف فجأة وتتركهم فانه سيعذبك ان تنظر الى الخلف نحو زوجتك وأطفالك ، وهم يقفون على جانب الطريق ، وترى تلك النظرة الحيرىٰ وقد ارتسمت على وجوهـهم .

ولهذا فانك لاتنظر الى الخلف الا في المنام ، عندما لايكون بمقدورك تجنب ذلك ، ولكن نومك لن يكون مريحاً البتة ، وعندما تستيقظ فانك ستعمد الى السياقة بأسرع مايمكن لابعاد فكرك عن تلك العيون .

ذهب أبي الى اوربا عام ١٩٤٤ ، وذاق طعم الحرب للمرة الاخيرة . وعندما عاد كان مثل غيره من المجندين العائدين الى احبائهم ، متعذراً على الفهم ، ويعامل برقة ومحبة من قبـل

معارفه الذين كان بوسعهم تخيل الفظاعات التي مرت به فحسب . لقد عاد أبي في حينها وكان يتفجر نشاطاً ودائب الحديث عن الحرب وعن الناس الذين حاربوا معه، بأسمائهم دون أن يهتم للتعريف بهم كما لو كنا نحن على معرفة وثيقة بهم ايضاً . كما قدم لنا التذكارات ـ أهداني مسدساً من طراز « والتر ٣٨ ب » وهو يقول بأنه قد غنمه من نقيب الماني قتيل « لقد انهيت ذلك اللقيط بنفسي ياكگ » كما قص علينا القصص حتى ساعة متأخرة من الليل حول الوضع في « رامبوليه » عندما قاد « جيشه » الخاص المؤلف من مئات من رجال المقاومة الفرنسيين داخل باريس قبل الجميع ، وقبل ان يدخلها الجنرال « لاكلار » بأربع وعشرين ساعة ، وكيف انه قد رشح لنيل وسام النجمة الفضية من قبل جنرال ثان تثميناً منه للمعلومات الاستخبارية المهمة التي قدمها له والدي عن مواقع العدو ، ثم كيف توجب عليه بعدئذ أن ينكر نشاطاته هذه بقوة أمام لجنة تحقيقية عندما اكتشف ذلك الجنرال نفسه ـ في وقت متأخر نوعاً ما ـ بأن المراسلين الحربيين لم يكن يسمح لهم بحمل السلاح بموجب نصوص معاهدة جنيف ، (قام المراسلون الآخرون ـ عندما وقعوا في الشبكة ـ باظهار الندم على « حرب الرجل الواحد » تلك ، وشاركوا بالإدلاء بأقوالهم أمام تلك اللجنة » .

وكان أبي قد أصيب بارتجاج قوي إثر اصطدامه ببرج ماء وهو يسوق في لندن خلال فترة التعتيم ، كما غلبت على أحاديثه الرطانة الانكليزية للمرة الاولى حيث بدت لنا كافة الضمائر الشخصية كما لو كانت قد أصبحت هي الاخرى من ضحايا الحرب ، وراحت تتخلل أحاديثه عبارات من قبيل : « كيف ترون الامر الآن ياسادة ؟ » والتي يكررها عدة مرات على مسامع كل شخص . ولقد وصفت « ليليان روس » تلك الحالة على نحو دقيق تماماً في « النيويوركي » .

وعلى الفور جاءت فتاة جديدة رائعة لتحل محل مارتي في الفنكا ، « انها جميلة حقاً ياكگ وستحبها » ، وكنت أعلم انه سيتوجب عليَّ ذلك ، بل وربما سأقع في حبها فعلاً ، ولكنني فكرت في قول والدتي : « لم يتوجب عليه دوماً ان يتزوج ممن يحب ؟ » .

ساد التوتر علينا جميعاً ونحن ننتظر وصول زوجته الجديدة ، والغريب انها لم تكن مخيبة للآمال فقد كانت أجمل من مارتي بالتأكيد ، كما كان الأمر مسلياً ، نحن الأولاد بعد آن كبرنا الآن واصبح بوسعنا أن نقاسمها أشياء كثيرة .

كانت « ماري ولتش » شقراء صغيرة ، عملت مراسلة حربية لمجلة « تايم » اللندنية . وكان والدي قد تعرف عليها خلال فترة انفصاله عن مارتي ، وهكذا فقد كان هناك ذلك النوع من التحول المريح بالنسبة له وهو توفر امرأة جميلة جديدة ، بينما هو بصدد عملية قتل ذكريات

زوجته القديمة . ولقد كان سهلاً أمر قتل الذكريات مع ماري .

وعلى العكس من غيرها من النساء اللائي يتظاهرن بالمشاركة في اهتمامات ازواجهن خلال فترة التعاون الاولى ، فان ماري شاركت فيها بعد الزواج أيضاً ، فقد كانت تذهب للصيد على متن پيلار يوماً بعد يوم ، قبل زواجها وبعده ، عارضة بشرتها الشمالية الجميلة للشمس المدارية بلا شكوى ، كما تعلمت الاسپانية بسرعة ايضاً فقد كانت تتمتع باذن حساسة لالتقاط الألفاظ ، وامتلكت استعداداً ذاتياً لتعلم القواعد النحوية ، كما وقد جعلت النظام يسود محل الهرج العائلي الذي كانت قد تركته مارتي .

كان أبي لايستطيع أبداً حمل نفسه على طرد خادم له ، لذلك فقد كان الخدم الذين جلبتهم ماري أصلاً مايزالون في الخدمة . وحالما وصلت ماري فقد علمت على تطويقهم بحزم، اذ تعين على البستاني ، السكير المولع بالمراهنة على هراش الديكة ، أن يباشر عمله بانتظام ثلاثة أيام في الاسبوع ، وفي غضون ستة شهور كان بوسع المرء رؤية السياج الخارجي للبيت مرة اخرى ، غير ان الخادمة المخبولة « كلارا » هاجمت الطباخ الصيني بسكين اللحم ، واصبح واضحاً بأنه يتعين عليها ترك العمل فوراً ، ولم تمض فترة طويلة حتى قام الطباخ ذاته ـ الذي كان قد اعتاد خلال فترة الحكم اللين واللاابالي لمارتي بالمجيء من المطبخ ليعلن للضيوف المجتمعين على المائدة ان « لاغداء لهذا اليوم » ـ بتكرار ذلك للمرة الاخيرة ، فعاد بعدها الى محله وشنق نفسه من على انبوب صديء ، ولم أكن هناك وقت انتحاره ، ولكنني لم أحزن عليه كثيراً . وعندما عدت الى الفنكا ، كانت ماري ـ وهي تلميذة ذكية سريعة الفهم ـ قد استوعبت فن الطبخ تماماً .

كان بمقدورها عمل كل شيء يمكن ان يتوقعه المرء من امرأة ، ولكنها لم ترق لي في البدء على الرغم من مميزاتها لأنها احتلت مكان حبيبتي الحقيقية مارتي . ولكن ماري كانت مغرية أيضاً ، لذلك فلم تطل فترة حزني على مارتي كثيراً .

كان عمري خمس عشرة سنة عندما استلمت مارتي البيت الكوبي ، وأتذكر انني حصلت على متعة تفوق تلك التي يحصل عليها المدرب المحترم عندما علمتها الصيد ، ولقد تعلمته بسرعة أيضاً ، ولم تجفل البتة من رفسة البندقية عيار عشرين ، والتي لابد انها لم تكن مريحة بالنسبة الى امرأة مثلها لايزيد وزنها على المائة پاون ، ولقد كان رائعاً أمر وضع جسدها الرشيق بحيث يرتكز ثقلها على قدمها الأمامية ، وامساك البندقية الى أعلى مرتكزة على كتفها . وكنت أضع خدي على خدها لحظة فحسب للتأكد من انها كانت تطابق ناظور البندقية على نحو

مضبوط .

وشعرت بعدذلك أنها قد أصبحت مولوعة بي ايضاً . اتذكر اننا عندما أخذنا بيلار الى « بورتو إسكنديدو » ـ وهي ساقية باردة المياه ورائعـة تقع عـلى مبعدة اميـال قليلة شرق الساحل الكوبي ـ حيث كنا نرحل هرباً من ليالي الصيف الحارة . وفي تلك الرحلة قدت أنا « تن كد » ـ وهو زورق يبلغ طوله حوالي عشرين قدماً ابتاعه أبي هدية لماري ـ وأبقيته على بعد حوالي الأربعين ياردة على ميمنة بيلار ، وكان ذلك مروراً صعباً الى حد ما ، على الأقل بالنسبة الى « تن كد » وبينما كنت أقف بصرامة إزاء الدفة مجاهداً للاحتفاظ بتوازن أمام دفع التيار الشرقي ، تصورت انني لمحت ماري وهي تراقب باعجاب وضعي النبيل الذي لم يكن عفوياً تماماً . وفي الواقع فانني لم أكن اراقب أبي وهو يقود المراكب خلال كل تلك السنين للاشيء . وبعد وصولنا بورتو إسكنديدو ، تناولنا طعام العشاء ، وشربنا قليلاً ، وكان بابا بالطبع اكثر شرباً تليه ماري . وهنا قالت ماري : « اريد أن أنام مع السيد كگ الليلة » .

ولقد تفوهت تلك الكلمات بحلاوة وبنبرة من الاعجاب المسترخى بحيث انني لم أقل شيئاً بل اعتبرته أمراً أستحقه . أما بابا ـ الذي كان وقتها ثملاً على نحو لطيف ـ فلم يزد على الرد بهذه الكلمات : « بالتأكيد ، بالتأكيد ، نامي مع السيد كگ .. » .

وتصورت ان ذلك سيكون نهاية الأمر ، ولكن ماري عادت لتقول ثانية بعد فترة قصيرة : « اريد ان أنام مع السيد كگ الليلة » . واعادت تلك الجملة عـدة مرات في الدقـائق القليلة التالية ، ثم قالت اخيراً ، ربما بتحد أكبر قليلاً : « تباً ، سأنام مع السيد كگ» .

« حسن ، بالتأكيد . نامي مع السيد كگ » . قال بابا مردداً جملتها ، ولكن أين ؟ أين نستطيع النوم ، صحوت فجأة ببرود . كنت سأنام مع ماري وكنت فتى مشبوكاً

ـ « أين نحصل على مجال كاف للنوم يابابا ؟ » سألته انا .

ـ « خذ الفراش الهوائي الى الجسر المعلق وتأكد من أخذك لبطانية واحدة على الأقل حيث سيصبح الجو بارداً قبل الصباح » .

وأخذت على عاتقي مهمة القيام بكافة الترتيبات ففتحت الفراش بأسرع مايمكن ، ولم اتوقف الا مرتين كي ألتقط أنفاسي ، واختطفت البطانيات وارتديت بجامتي ، وانتظرت دون ان اعلم فعلاً ما كان متوقعاً مني ، اذ لم تكن لدي أدنى فكرة عما يتعين علي فعله ، هذا اذا كان يجب علي عمل شيء ما .

وبدا وكأن ماري لن تأتي أبداً ، ربما تم تأجيل الأمر كله . استلقيت على ظهري على الجهة اليسرى من الفراش وجسدي متوتر بكليته . كانت الريح قد خمدت والسماء صافية

والنجوم فيها كثيرة تتلألأ بكثافة مدهشة .

حاولت ايجاد النجم القطبي بمساعدة الدب الصغير ، وعندها بارحني التوتر الذي كان قد صنع خيمة ملعونة من نصفي الأسفل .

انكفأت على وجهي عندما بان محيا ماري على قمة القارب : « انت هنا ياگگ ؟ » ثم ، عندما شاهدتني ، « اوه ، انها ليلة رائعة . هل حصل وان راقبت النجوم عن كثب من قبل ؟ » ،

ـ « كلا ، لم يسبق لي أن فعلت ذلك » قلت وأنا أتظاهر بالتثاؤب .

والحمد لله ان الفراش كان فسيحاً بما يكفي لتجنب مس بعضنا الآخر عندما انزلقت هي تحت الأغطية .

ـ « انظر . هناك نجوم منطقة الجبار والدب الصغير » ، قالت ماري ، « وتلك النجمة الصغيرة التي تبدو أكبر من غيرها ، انها النجم القطبي ، وهي تتقزم بسبب كل تلك التجمعات الرائعة للنجوم حولها حيث يبدو ان هناك أنجماً جديدة قد ظهرت على التو ، والضياء الذي نراه منبعثاً منها الآن لابد وأن يكون قد قطع في طريقه الى هنا ملايين السنين من قبل ، نعم ، ملايين ياگگ » .

ـ « بالتأكيد » ، قلت متثائباً مرة اخرى .

ـ « اوه ياحبيبي المسكين ، لابد أنك قد اصبت بالارهاق بفعل تلك الكؤوس الكبيرة من البيرة ، وبعد تلك السفرة الشاقة » . استدارت ومست كتفي ، « لننم الآن ونتمنى لأبيك أن يحصل على سمكة كبيرة في الصباح » .

ثم استدرت ، وكان بوسعي أن ادرك من ايقاع تنفسها بأنها قد غفت في غضون ثوان قليلة ، ولكنه لم يكن نوم العافية البريء لي ، فقد كنت أخشى انني لو نمت فسأنقلب عليها دون وعي مني ، أو أضع ذراعي حولها ، أو أعمل ما لا يعلم الا الله كنهه . لذلك فقد انقلبت على ظهري ـ كانت تلك الخيمة القذرة قد هوت على الأقل ـ وبدأت بتشخيص المجرات . وعندما تعبت من ذلك ، غادرت المكان ونزلت الى تحت حيث تناولت كؤوساً أخرى من البيرة .

غير انني عندما عدت الى الفراش واستلقيت جنب ماري كان النوم قد طار عني . واخيراً فقد سقطت من الاعياء في حوالي الساعة الرابعة صباحاً وانا اعيد لنفسي واكرر عدة مرات : « ابق في عليائك ياحزام اوريون » .

ولم يكن بمقدوري قط تذكر أحلامي مثلما كان بمستطاع أبي ، ولكنني أتصور انني

احتفظت بأكفي في مكانها لانني اتذكر ان ماري لكزتني برفق في حوالي الساعة السابعة صباحاً وهي تقول :

ـ « الأفضل ان تنهض ياكك . سنتناول طعام الإفطار وننزل حالاً » . ثم اردفت ذلك بالقول « انك رفيق نوم ممتاز ياسيد كك . إذ انك لم تصدر اي صوت طوال الليل » .

دروس Lessons

عندما بلغ بابا الخمسين من العمر ، تحول الى رجل متكبر زائف . كان كل شيء حوله « قصر گريتي هذا .. كورتينا تلك .. الكونت فلان الفلاني رجل لطيف بالفعل وستحبه بالتأكيد ياگگ » . وكان « الكونت » فلان الفلاني يظهر عادة بأنه ليس « كونت » أو أي شيء مثير آخر .

- « والفتاة ياگگ ، إنها رائعة حقاً » .

حسنٌ ، لقد كانت بليدة ولها ام تحوم حولها باستمرار بأنفها المعقوف .

تلك كانت عملية تقديمي الى « المجتمع المخملي » .

كان بابا قد التحق بركب النخبة العالمية ، وكنت احس بانني قد خسرته أخيراً .

« لقد عشت حياتي على نحو رائع ياگگ ، ولم اندم على اي شيء عملته . ألم نتمتع سوية ياگگ ؟ ألم يكن الأمر ممتعاً بحق الله ؟ انه لأمر : ان نحيا حياة رائعة » .

اوه ، تباً ! لقد أردت الخروج من كل هذا ، ولكن أين أذهب ؟ إنه لأمر حسن أن تقع تحت تأثير شخصية فذة مادام ذلك الرجل معافىً ، ولكن عندما تجف روحه وتتعفن كيف يتأتىٰ لك ان تحمل نفسك مشقة اخباره بأن رائحته قد فاحت ؟ .

- « ألم نستمتع معاً بالحياة ياگگ ؟ ألم ... » .

كان عمري آنـذاك ثمانيـة عشر عامـاً ، وكان بـابا يـدفع مصـاريف طعامي وسكني ودراستي .

كان بمقدوره أحياناً ان يتحدث بلباقة ، والغريب انه كان مازال قادراً على تقديم نصائح مفيدة ايضاً . كنت وقتها في السنة النهائية من المرحلة الاعدادية ، وكنت افكر بالكلية وبما يمكن ان يحصل بعدها .

- « ليس مهماً في الواقع نوع العمل الذي ستقوم به مادمت تنجز شيئاً يثير اهتمامك ياگگ» . كان يقول « شيئاً تعتقد انه يستحق الجهد ، شيئاً خلاقاً ، وهنالك العديد من الأعمال التي تستحق الكد ، ولو ان بعض الانذال من ذوي العقول الصغيرة يدعي العكس من هذا ، ولا تهتم بالمال ، فان فشلت في الاختيار فسأتكفل انا بدفع نفقاتك ! ألم يستقر رايك بعد على شيء تود عمله فعلاً ؟ » .

كنت قد فكرت كثيراً في ذلك ، وكانت درجاتي جيدة في الاعدادية تؤهلني للالتحاق بأية كلية تعجبني تقريباً ، وكان لدي الاستعداد لدراسة الطب أو القانون ، غير انني كنــت

امقت معظم المحامين واتصور انهم أناس قساة ومخاتلون ، فيما بدا لي الطب عملاً رتيباً رصيناً . لقد كان ماأريد أن أصبحه فعلاً هو « إلبطل الهمنغوائي » .

ولكن ماهو البطل الهمنغوائي بحق الجحيم ؟ كان بامكاني تحليل كل رواياته ، ولكن التفسير النهائي المستنتج هو أن البطل الهمنغوائي انما هو همنغواي نفسه ، او الخصال الجيدة فيه ، غير انك لكي تستطيع اسناد ذاتك وانت تقوم بكل تلك الاشياء الممتعة التي تسمح لك بابداء الكياسة وانت متوتر ، فانه يتعين عليك ان تكون قادراً على الكتابة عنها ، وكان جواز السفر لتلك الحياة اللامعة هي الموهبة ، والتي هي هبة من الله ـ وكذلك استيعاب تكنيك الكتابة الفنية ، وذلك أمر يمكن تعلمه ، لذلك فقد قررت ان أصبح كاتباً ، ومع انني استخف بهذا الامر الآن ، ولكنني كنت جاداً حتى النخاع في حينه .

ـ « بابا ، ماهي الكتب التي اثرت فيك من غيرها عندما كنت فتىً ؟ » سألته خلال احدىٰ اجازاتي في هافانا .

بدا بابا مرتاحاً لسؤالي هذا ، وسلمني قائمة بالكتب التي يتوجب علي مطالعتها ، وهكذا فقد ابتدأت عملية التدريب الخاصة بي .

« مدام بوفاري » بدت لي تمتلك تلك البساطة التي تميز كل شيء جميل حقاً ، أما « الحرب والسلام » فهي عذاب عظيم ، ومثلما كان بابا قد حذرني فقد كان من الصعب ملاحقة جميع شخوصها الذين يمتلكون اسماء متشابهة ، ولكن « اقرأهم من أجل التبصر ببناء الشخصية وتنظيم الحبكة .. وبالطبع للمتعة ايضاً » ، نصحني بابا .

ـ « لايمتلك معظم الكتاب الشباب الجدد ، مثل « جيمس جونز » و« إروين شو » اكثر من كتاب جيد واحد ، وليس بمقدورهم الذهاب أبعد من هذا ، ولكنهم ، باعتبارهم مقاتلين صناديد ، يعمدون الى الامساك بك وتطويحك وافساد بصيرتك بدس إبهامهم في عينيك ، انهم يواصلون الكتابة مستندين على حبال حلبة المنازلة ويمضون بقية حياتهم معتاشين على شهرة الكتاب الواحد ، وما عليك الا ان تلاحظ أعمالهم الرديئة التالية ، مع ذلك طالع « من هنا حتى الخلود »[٢٦] و « السباع الشابة »[٢٧] ، وبالطبع اقرأ « فوكنر »[٢٨] .

---

(٢٦) رواية لجيمس جونز .

(٢٧) رواية لاروين شو .

(٢٨) وليم فوكنر (١٨٩٧ ـ ١٩٦٢) روائي وقاص وشاعر امريكي

ـ « انه أحسن منا جميعاً وان كان لايستطيع انهاء رواياته جيداً ، ويتوجب عليك ان تخوض خلال الكثير من السرطانات كي تحصل على الذهب » .

وعندما سمع بابا بأن « فوكنر » قد حصل على جائزة نوبل للآداب ، علق قائلاً : « انه يستحقها اذ لايعوزه غير الوعي الفني . فان كانت الامم لاتستطيع الحياة وهي نصف حرة ونصف مستبعدة ، فسوف تتصور انه ليس بوسع أي امرىء ان يكتب بشكل نصف ممتاز ونصف تافه ، ولكن بوسع فوكنر ان يكون هكذا . بحق الله ، كم اود لو كنت امتلك موهبته » .

وبعد بعض الأقداح الاخرىٰ من الويسكي ، واصل بابا حديثه عن فوكنر قائلاً « ولكنني سأشعر بالراحة لو عملت مديراً لأعماله ، مثل « ليو دوجر » الذي لم يمتلك ابداً الأدوات التي تمكنه من لعب البيسبول ، والذي نجده سعيداً الآن بتدريب « ويلي مايز » الذي يمتلك المؤهلات التي يفتقدها هو » .

وفي احدىٰ الليالي ، بدأ بابا يحن الى أصدقائه الذين شاركوه مائدته المتحركة في باريس ابان العشرينات . « كان عزرا باوند » أكرم صديق صادفته ، ولقد اجتهدت كي اقنع نفسي بأنه قد جن عندما كان الجنون دفاعه الوحيد ضد تهمة الخيانة . كان قد حكم على « أكسس سالي » بالسجن عشرين عاماً لبثه دعاية الاعداء ، كما جرى شنق اللورد « هو ـ هو »[29] . لقد كان ذلك المصير هو الذي يهيمن على أذهاننا عندما حاولت مجموعة منا اسقاط تهمة الخيانة عنه ـ ولقد وفقنا في ذلك المسعىٰ ، واحيل « عز » المسكين لمستشفى « سانت الزبث في واشنطن » .

ـ « هل كان خائناً ؟ » .

ـ « لقد كان في ايطاليا عندما اندلعت الحرب ، وكان الناس يتملقون انانيته ، فوضعوا أمامه ميكرفوناً ليستطيع الآلاف سماع صوته . كان « عز » يحب الثرثرة ، وكان حلو الكلام جداً ، ولكنه لم يكن مجنوناً . كان ثرثاراً فحسب ،وكانت لديه بعض الافكار الاقتصادية السخيفة ، مثله مثل غيره من الناس » .

كان بابا نادراً ماينسى « سكوت فتزجرالد » عندما يتحدث عن الأدباء . « ان « كاتسبي »[30] كتاب عذايم ، وقد قرأته مرتين خلال السنوات الخمس الاخيرة ، وهو يبدو

---

(٢٩) وليم جويس ١٩٠٦ ـ ١٩٤٦ « اللورد هو ـ هو » عمل في الدعاية للنازية من اذاعة برلين خلال الحرب العالمية الثانية . حوكم بعد الحرب وأعدم في بريطانيا .

(٣٠) « كاتسبي العظيم » اشهر رواية للروائي الامريكي سكوت فتزجرالد (١٨٩٦ ـ ١٩٤٠) . وكذلك « الاملاء لنيلي من » « هذا الجانب من الفردوس » .

افضل في كل مرة ، كما ان قصة « المساء لطيف » جميلة هي الاخرى ، وغيها تعثر في الوسط ، ومثلها قصتي « أن تملك وأن لاتملك » أما « هذا الجانب من الفردوس » فهي نكتة ، و « الجميلون والملعونون » غير جميلة بشكل ملعون ، بحيث تعذر عليّ إنهاؤها : لقد تحسنت اعمال « سكوت » باضطراد ، غير أن أحداً لم يدرك ذلك ، حتى « سكوت » نفسه . وبالرغم من معاقرته الخمرة ـ ربما بسبب « زيلدا » التي جعلت منه الصندوق ذا المقابض ـ فقد تطور باستمرار بحيث كانت المادة التي يكتبها في أواخر حياته أروع ماتكون ، ذلك الرجل المسكين » .

وليس صحيحاً أنا بابا لم يكن يمتدح معاصريه من الادباء ، خصوصاً الواعدين منهم ، ولكن الصحيح انه كان يعبر عن آراء مختلفة فيهم :

« ربما كان « مَيْلر »[٣١] أفضل كاتب لفترة مابعد الحرب . انه معقد نفسياً ، ولكن الجانب النفسي هو أكثر الاشياء مصدراً للامتاع عنده . وأظن ان الفرصة لن تواتيه كي يرمي بصيد آخر كبير مثل « العريانون والموتى » ، ولكنه ان استطاع ذلك » قال بابا وهو يلكم « ميلر » المتخيل امامه » . فالأجدر ان احذر منه ، فسيكون هناك دوستويفسكي آخر يتوجب منازلته . وعلى فكرة ، فلم يستطع احدٌ بعد المطاولة امام السيد دوستوفيسكفي اكثر من ثلاث جولات » .

واتصور ان بابا كان يتحدث لنفسه أكثر منه معي في ذلك المساء الذي قال فيه :

ـ « لقد أسقطت جائزة نوبل من حساباتي بسبب اولئك السويديين من ذوي العقول الصغيرة ، أو بالأحرىٰ اولئك السويديين الأمناء المخلصين ، فطبقاً لنصوص وصية « نوبل » ينبغي منح الجائزة للادب الذي يمتلك قيمة اجتماعية ، ولكن « جيد »[٣٢] حصل عليها ولم يكن مهتماً بالنهضة الاجتماعية أو الاخلاقية .. بينما لم يحصل « هنري جيمس »[٣٣] عليها ، ولا حتى « جيمس جويس »[٣٤] ... اما « وايلد »[٣٥] المسكين فلم تسنح له الفرصة وذلك الشاب

---

(٣١) « نورمن ميلر » روائي امريكي معاصر ، وهو واضع مقدمة هذا الكتاب . تدور احداث قصته « العريانون والموتى » في المحيط الهادي خلال الحرب العالمية الثانية .

(٣٢) « اندريه جيد » (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) روائي وناقد فرنسي .

(٣٣) « هنري جيمس » (١٨٤٣ ـ ١٩١٦) روائي وناقد امريكي شهير عاش في بريطانيا .

(٣٤) « جيمس (اوكستين اليوسيوس) جويس » (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) روائي وقاص وشاعر ايرلندي شهير .

(٣٥) « اوسكار وايلد » (١٨٥٤ ـ ١٩٠٠) مؤلف مسرحي وشاعر روائي وناقد ايرلندي الاصل . سجن لاتهامه بالشذوذ الجنسي .

الذي لااعرف اسمه يمسك بيده ، « دريزر »[٣٦] مؤلف « التراجيديا الامريكية » الباعثة على السأم ، فقد تم أخذه بنظر الاعتبار لأنه غنّىٰ على الدوام لاهداف سامية تحتاج الى قناع اوكسجين كي تستطيع مطالعتها ، والى عقار « بنزدرين »[٣٧] ليصبح بمقدورك مواصلة اليقظة .. لقد منحوها لسنكلير لويس[٣٨] ربما لأنهم تصوروا ان أي رجل يمتلك وجهاً مثل وجهه لابد ان يكون قد عانىٰ الكثير في حياته ، وانه قد أصبح لذلك نبيلاً وسامياً ... اراهن ان « آيمي سيمبل ماكفيرسن » هي التي اعدت القائمة الصغيرة لذلك العام ! ولكن « پيرل بك »[٣٩] ! ربما كانت « الارض الطيبة » عملاً جيداً ، ولكن بحق المسيح كم هي مرعبة المادة التي تلتها ! انها سيدة لطيفة ، ولكنني سأكون أسعد عندما تحصل على ملء مجرفة من الارض الطيبة في وجهها .. لا ، لن أحصل عليها في الواقع .. غير انه من الممتع ان يتحدث المرء عن اولئك الكتاب « الكبار » .

قرأت خلال ذلك الصيف في هافانا كتب ابي المفضلة كلها ، من « هَكِلْبَـرِيْ فِنْ » الى « صورة الفنان في شبابه »[٤٠] . ومثلما كان يفعل هو فقد كنت اقرأ كتابين أو ثلاثة كتب في آن واحد ، ثم وجهني والدي الى مطالعة اعمال اساتذة القصة القصيرة : « موباسان » و « تشيخوف » ، وقال : « لاتحاول ان تحلل ، استرخ وتمتع بها فحسب » .

ـ « والآن » قال بابا صباح ذات يوم ، « حاول ان تكتب قصة قصيرة بنفسك ، ولا تتوقع انها ستكون جيدة » .

جلست الى منضدة وبيدي أحد أقلام أبي ذات الرؤوس المدببة ، وفكرت وفكرت . نظرت من النافذة ، واستمعت الى تغريد الطيور ، والى قطة تموء راغبة في مشاركتهم ، والى خربشة قلمي وانا أرسم على نحو عابث ، ثم فتحت الباب كي أسمح للقطة بالخروج ، فدلفت الى الغرفة قطة اخرى .

اتجهت نحو طابعة أبي التي كان قد فرغ للتو من العمل عليها ، وطبعت ببطء قصة قصيرة واخذتها اليه .

---

(٣٦) « تيودور دريزر » (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) روائي امريكي .

(٣٧) اسم علامة تجارية لـ « امفيتامين » وهو عقار منشط .

(٣٨) « سنكلير لويس » (١٨٨٥ ـ ١٩٥١)روائي ومؤلف مسرحي وصحفي امريكي .

(٣٩) « پيرل سيد نستر ايكر بَك » روائية امريكية ولدت عام ١٨٩٢ .

(٤٠) « هكلبري فِنْ » رواية للكاتب الامريكي الساخر « مارك توين » (١٨٣٥ ـ ١٩١٠) . « صورة الفنان في شبابه » رواية لجيمس جويس .

وضع بابا نظارته على عينيه ، وصب لنفسه كأساً اخرىٰ ، وقرأ وانا انتظر . وبعد ان فرغ منها ، نظر الي وقال « إنها ممتازة ياكگ ! أحسن بكثير من اي شيء كتبته انا عندما كنت في عمرك ، والتغيير الطفيف الوحيد الذي اوصى به هو هنا » ، واشار الى السطر الذي يتحدث عن طائر يسقط من عشه ، ويكتشف بمعجزة انه لو صفق بجناحيه فانه لن يصطدم بالصخور تحته .

« لقد كتبت : « وعلى حين فجأة ادرك ان بمقدوره الطيران » ، إستبدل عبارة « على حين فجأة » الى فجأة فحسب . لاتستعمل كلمات اكثر مما ينبغي البتة لأنها تقطع انسياب الحدث » ، وابتسم كما لم أكن قد شاهدته يبتسم لي لفترة طويلة ، غير انك فزت بالمباراة ياولد ، ولكن الكتابة تتطلب الدراسة والانضباط والخيال .. ولقد اظهرت أنك تمتلك الخيال ، فاذا كان بمقدورك أن تنجز ذلك مرة فان بامكانك ان تعيد ذلك ألف مرة ، فالخيال يمكث طويلاً ، وربما لن يزايلك أبداً . لقد كان دوستويفسكي في السابعة والخمسين عندما كتب « الجريمة والعقاب » .

« كنت أشعر بالحزن الكبير في « كي وست » عندما كان القراء يرسلون أعمالهم لي ، وكان بوسعي ادراك حقيقة عدم امتلاكهم ناصية الكتابة ، بل وحتى عدم امكانية امتلاكهم لها مستقبلاً بمجرد ان اطالع صفحة واحدة مما كتبوه ، وكنت ارد على تلك الرسائل بالقول « ان الكتابة الجيدة هي مسألة حظ اساساً ، وان امتلاك موهبة فنية كبيرة يشبه ربح الجائزة الاولى ليانصيب تكون فيه نسبة احتمال الفوز واحد الى مليون ، فاذا لم تكن موهوباً فان كل دراسة وانضباط العالم لن تعني شيئاً ، اما عندما تحتوي رسائلهم على عبارات من قبيل » يقول لي جميع معارفي ان بمقدوري أن أصبح مهندساً ممتازاً ، ولكنني أتوق الى أن أصبح كاتباً » فقد كنت اجيبهم قائلاً : « ربما لايكون جميع معارفك من المخطئين ، وانك ستصبح فعلاً مهندساً كبيراً ، وستنسىٰ كل شيء عن الكتابة ، وستكون سعيداً بذلك ولن تعود اليها ابداً » .

« لقد كتبت مئات الرسائل من هذا النوع ، وكنت أحصل على دولار لكل كلمة في تلك الأيام » .

« بعد ذلك ، وعندما ازداد عدد الرسائل كثيراً ، فقد كنت اوجز إجاباتي بعبارة « الكتابة مهنة صعبة فلا تورط نفسك بها متىٰ استطعت الى ذلك سبيلاً » . ولعل القراء كانوا يتصورون « إن ذلك الوغد المتعجرف لم يكلف نفسه حتى عناء مطالعة المادة التي كتبتها ، ولكنه باعتباره كاتباً جيداً فانه يجعل من الكتابة مسألة كبيرة نادرة » .

« والشيء المهم هنا ياكگ هو أن بمقدوري الآن تعليمك لأنك تمتلك العدة المـطلوبة ، وبغرور كاف أقول لك انني أعرف الكثير عن هذه المهنة » .

« لقد فكرت في التوقف عن الكتابة منذ فترة طويلة لكونها لم تعد تأتي سهلةً سلسةً مثلما كانت عليه في السابق ، ولكن من دواعي سروري أن اسـاعدك فيهـا كما لو كنت انـا الذي انجزها . لنشرب احتفالاً بهذا » .

ولا أتذكر ان بابا قد شعر قبلئذ بتلك الدرجة من الاعتزاز بي الا عندما دخلت مباراة صيد الطيور ، ولقد كان واثقاً ان فائزاً آخر قد ظهر في العائلة عندما شاركت في مسابقـة القصة القصيرة في المدرسة وحصلت على الجائزة الاولى .

ولكن الذي كان يجب ان يستلم تلك الجائزة انما هو تورجينيف الذي كتب القصة وقمت أنا باستنساخها ـ مع تغيير الاسماء والمواقع ـ من كتاب تصورت ان بابا لم يقراه لان بعض صفحاته لم تكن مفتوحة بعد .

ولم أُسعد داخلياً بالانتصار وتساءلت : كم سيطول الأمر قبل ان يكتشف بـابا بـأن الاسهامة الخلاقة الوحيدة التي شاركت فيها بتلك القصة كانت تغيير كلمة فجأة » الى « على حين فجأة ؟!! » .

ولحسن الحظ فانني لم اكن معه ، اكتشف اخيراً انتحالي ذاك ، فقد قيل لي ان شخصاً ما سأله عما اذا كان ابنه گريگوري يمارس الكتابة فأجاب بسخرية والتماع :

ـ « نعم » ، ثم اضاف بابتسامة عريضة مفتعلة ، « انه يكتب من خلال عملية تحري عرضية فاشلة » ، وبالطبع فقد هدر الجميع بالضحك .

ولابد أن أحداً من ذلك الجمع قد فكر وقتها « كم هو جلف وقاس هذا الوغد الذي تواتية نفسه للتحدث عن ابنه بهذه الدرجة من البلاغة التهكمية . اذن ، فلابد ان تكـون كل تلك القصص التي سمعتها حول طبيعته المتنمرة الخشنة صحيحة تماماً بالفعل » .

نعم ، لقد كان قاسياً بالفعل ، ولكن الذي ساهم في جعله هكذا انما هو انا وليس أي شخص غيري .

الهة الالهام The Muse

التقيت بابا للمرة قبل الاخيرة عندما احتفلنا بأعياد الميلاد لعام ١٩٥٠ ، والتي ظهر فيها رائعاً . كانت عيناه تلمعان مرة اخرىٰ ، بعدما بقيتا حزينتين الى حد ما خلال عقد الاربعينات ، وكان وزنه قد خف أيضاً ، الأمر الذي كان يعني انه لم يعد يشرب كثيراً ، وانه منكب على الكتابة بجد مرة اخرىٰ . كان وجهه قد أصبح ممتلئاً اثر افتقاده لتلك الوسامة التي تضاهي وسامة نجوم السينما ، ولكنه لم يكن يبدي اهتماماً فائقاً بمنظره في واقع الحال .

أما صورته فقد كانت مسألة اخرىٰ ، اذ كان يعمد الى تناول كأس الشراب كلما أحس بتواجد عدسة تصوير على مقربة منه لأنه كان يؤثر الظهور بمظهـر الشخص القوي ، غـير الأديب ، وغير المثقف . وعندما اقترب منه الموت بعدئذ ، أصبح يفضل مظهر الشاب ، وراح يرسل شعره مثل « سناتور » روماني لاخفاء صلعته ، ولكنه كان يدرك ان وسامته هي نعمة اخرى ، وانها وان كانت أقل أهمية من موهبته الفنية ، لاينبغي ان تكون موضع استغلال شخصي ، ولقد كنت فخوراً به على الدوام بسبب ذلك .

وقتها كان بابا يمر بمرحلة مخاض أكيدة ، ولقد ظهر الحافز عندما خطرت تميس من الباب الأمامي لغرفة الاستقبال كحقيقة واقعة . كان اسمها « أدريانا ايفانسش » وهي نبيلة ايطالية في التاسعة عشرة من العمر ، وكان بابا وماري قد تعرفا عليها في مدينة البندقية قبل ذلك بسنتين . كانت أدريانا فتاة جذابة بشعرها الفاحم ، وعينيها السوداوين ، وخديها العاليين ، ووجهها النحيف ذي التقاطيع الرقيقة ، وابتسامتها الساحرة التي لاتكشف عن أي غرور أو وجل في أسارير وجهها ، ولم تكن تماثل ابداً تصوري الخاص عن المرأة الايطالية والذي تولد من خلال صلاتي بالمهاجرين الطليان من جنوب ايطاليا ، وباختصار فقد كانت ادريانا حائزة على أخص خصائص بابا ، ألا وهي : الالمعية المترفعة .

كانت عائلة ايفانسش قد أبدت ذلك النوع من الكرم البهيج ـ المشهود عند الطليان عن استحقاق تام ـ لدىٰ زيارة بابا وماري لهم في البندقية ، وكانت عائلة همنغواي ترد لهم الجميل الآن . غير ان الأمر كان أكبر من مجرد تبادل للمجاملات بل أعمق من ذلك بكثير . لقد وقع بابا في حب « ادريانا » فكتب « عبر النهر » عنها ، ولكن ذلك الكتاب لم يُستقبل على نحو مرضٍ .

وبوجود ادريانا في الفنكا كضيفة ـ ترافقها أمها الدؤوب ـ فقد أسعد بابا بقربها منه ليس للمسها أو تقبيلها أو غير ذلك . ولكن ما كان رأي ماري بذلك؟ لستُ أعلم فأنني لم أسألها ابداً .

« ياكِك ، أظن انني نجحت في انجاز عمل هائل جديد ، لاأود التحدث عنه ، فأنا ما أزال مشغولاً به » ، قال بابا وهو ينقر على الخشب ، « ولكنني انغمست به طويلاً وسأريه لك حالما انتهي منه ، فانت تعرف كيف يبدو الامر أيها الكاتب » ، كانت عملية الانتحال التي اقترفتها لم تكن قد اكتشفت حينذاك .

« والله اني لسعيد ان أسمع منك هذا يابابا . هل بوسعي رؤية قسم صغير منها ؟ » .

«لا ، ولكنني ساعرض لك موجزاً لها . لقد بدأت اكتب عن أيام بيميني ووضعيتكم فيها . لم اكن قد استخدمت أياً من افراد العائلة في عمل مكتوب باستثناء النساء : هادلي وامك ومارتي » . انتظروا اشتر الكتاب ، انه يتملقك كثيراً .»

قال بي مازحاً .

ـ انه جزء من تلك الثلاثية التي حدثتك عنها من قبل عن الأرض والبحر والجو ، وانا على وشك الانتهاء من جزء بيميني ، وسأريك اياه حال فراغي منه ، ولن يكون ذلك بعيداً اعتماداً على المعدل الذي اكتب فيه الآن . وأود ان اعرف رد فعلك تجاهها . انها تختلف عن اي شيء آخر كتبته حتى الآن ، وليس فيها أي اهتمام بالحب او الجنس . انها مجرد قصة عن رجل عجوز يصطاد سمكة فحسب ، وفيها نوع من الصوفية ، ونثرها ملحمي ، ولعله ملحمي اكثر مما ينبغي ، كما لو كنت أنشد فيه العظمة ، ولكن حقيقة الأمر ليست مثل ذلك . انه يتدفق بشكل طبيعي ، وسيعتبرها « بوني ولسن » العجوز[41] « واحدة اخرى عن قصص همنغواي عن صيد الأسماك » . كما أحسب ، غير ان بمستطاعي الاعتماد على « جون اوهارا »[42] ليوسمها بأنها اعظم شيء منذ ترتيلة القمة » .

« هل تتذكر عندما طلع علينا « جون » بذلك التحقيق التمجيدي حول « عبر النهر » مدعياً بأنني افضل كاتب منذ عصر شكسبير ، وعندما وضع « هرشفيلد » كاريكاتيراً في « نيويورك تايمز » يصور كافة الادباء الكبار منذ عصر الشعراء الملحميين وهم يتخوزقون على قلمي ؟ إن « اوهارا » رجل عظيم ، ولكن الايرلنديين يفرطون أحياناً في الاخلاص لدرجة انهم يفتقدون كل قدرة على الحكم المتجرد » .

« منذ ان أخبرت « جون » كم كان ممتازاً عمله « موعد في سامراء » ـ وهو يعلم بأنني

---

(٤١) « ادموند ولسن » (ولد عام ١٨٩٥) ناقد وكاتب امريكي .

(٤٢) « جون اوهارا » (ولد عام ١٩٠٥) كاتب امريكي .

كت اعني فعلاً ما أقول ـ حتى اصبح مثل كلب مخلص . وفي المرة القادمة سأقول له بـأن « موعده » عظيم كعظمة أحسن شيء استطعت كتابته انا ـ وبالمناسبة فانه يمكن ان يكون كذلك ، ومن المحتمل انه سيحصل على ضربة حظ جديدة مفاجئة ، وسنتفادى بذلك مصدراً قوياً للخجل في المستقبل » .

« وفي قصة الصيد هذه ، يمكن ان نشاهد « ليليان روس في أحد النهارات ، عندما تكون الرياح مناسبة والروائح ليست انتن مما ينبغي بالنسبة لها ، وهي تدبج قطعة جامدة عني وتتولى سلخ القروش في المعمل الكائن على الساحل ، وترطن باسبانية غير مفهومة . انها النهاية التي يستحقها كافة النقاد ، وهم سيجدون الرمزية في القروش[٤٣] ، ولكن ها أنا أتجاوز الحدود واتحدث عن الكتاب أكثر مما يجب . ستكون أنت أول من يراه لو بقيت هنا ياكُك . انني أُحس بالسمو وأنا أكتبه ؛ الأمر الذي يدفعني الى الثرثرة اكثر مما ينبغي ، هذا مايفسر شدة وثوقي بالشيخ . انه لأمر ممتع ان اكتب مرة اخرى . تباً لتمارين الاصبعين التي أُمارسها لابعاد الصدأ عن مفاتيح الآلة الطابعة ، وطرد الخمول عن الذهن » .

« لعل الانسان سينتصر في النهاية ، كما قال ذلك الرجل المعسول الكلام في خطابه المقدم بمناسبة منحه جائزة نوبل » .

« والله اني أشعر بالقوة ولا أعتقد انني بحاجة الى النوم مطلقاً ، ولكن أدريانا جميلة جداً وتستحق ان يحلم بها المرء . وعندما أنهض في فجر كل يوم ، أشعر بأنني أقوى من السابق ، وتتدفق الكلمات مني كالسيل . انها تتدفق بسرعة بحيث انني لاأستطيع مواكبتها ولا أقدر على التوقف ، غير أنني أجبر نفسي على التوقف بعد خمس ساعات من العمل المتواصل لادراكي وقتها بمدى الارهاق الذي اعانيه ، ومن الممكن ان تبدو لك العبارات جيدة حتى عندما تكون مرهقاً ، ولكن الذي يحصل بعد ذلك هو اضطرارك الى حذفها أخيراً صبيحة اليوم التالي » .

« غير ان العصارات بدأت تنساب مرة اخرى ايها الولد العجوز ، لا ليست العصارات المبتذلة ايها الوغد المشبوب » ابتسم وهو يلاحظ ابتسامتي ـ « بل العصارات الخلاقة . »

« لقد خسرت سمعتي مع « عبر النهر » وهي ليست بالقصة السيئة مثلما يدعي النقاد ، غير ان القراء لم تعجبهم مشاهدة روائي رومانسي وهو يكتب عن العجز والموت وعن حالة الحب النرجسية مع فتاة صغيرة . النرجسية ـ انت تعرف معناها ـ تمجيد صورة الذات . النساء

---

(٤٣) تقوم القروش في « الشيخ والبحر » بنهش القسم الاعظم من السمكة الكبيرة التي يصطادها بعد لأي بطل القصة العجوز « سانتياكو » وتُفسر بها كرمز للموت او لأية قوة قاهرة اخرى .

يرتكبذبا طوال الوقت فهي أمر طبيعي عندهن ، ولكنها تبدو سخيفة وضحلة عند الرجال في منتصف العمر ، حتى عند النساء » .

ـ « ولكنك لست في منتصف العمر » ، قلت أنا .

ـ « تكنيكياً نعم ياكگ ، بحق المسيح . انني أشعر وكأنني حصان فحل شـاب ، هل شاهدتها ؟ » .

ـ « نعم ، في غرفة الجلوس قبل فترة وجيزة ، وهي تبدو كما لو كانت تستمتع بوقتها ، ولكنني آسف لعدم مجيء اختها « آفترا » الى كوبا معها » .

ـ « ولا توجد هناك مشكلة بشأن مسألة الذوق » ، قال مجيباً على سؤالي بشكل ضمني إذ كان يعلم أنني أفضل أُختها « آفترا » التي قابلتها في البندقية السنة الفائتة » .

« اعتقد انك تتجاهل الكثير مما تمتلكه أدريانا ياكگ . انها ليست فتاة ثرثارة ولكنها تتحدث بذكاء ، وهي تفهم ماتقوله وترميه بوجهك بشكل مازح لطيف » .

« هاهما » قاطع نفسه لدىٰ دخول أدريانا الغرفة مع امها .

قفز بابا من كرسيه ليتخلىٰ عنه لليارونة العجوز » . ثم قال لها شيئـاً ما بـالايطاليـة فأظهرت استظرافها له ، بعدها استدار الى أدريانا وقدم لها الكأس بخجل .

وبعد ان أعد كأساً اخرى له ، تناول كرسياً قبالتها وسألها بصـوت سري بالانكليزية ـ ربما لفائدتي ـ :

ـ « كيف كان فطورك هذا الصباح ؟ » .

ثم استفسر منها عما اذا كان العامل قد نظف المسبح من أوراق الأشجار التي تتساقط فيه مساءً ، واذا كانت امها قد استمتعت بالنزهة معها في الجوار ، ثم ابتسمت وتفوهت بشيء لم اسمعه أنا فضحك على اثره كلاهما بصوت مجلجل ، فيما استدار رأس البارونة الكبيرة قليلاً نحوهما بلا وجل وكأنها خفير سئم حراسة قلعة منيعة .

واصل بابا الثرثرة مع ادريانا ، بالايطالية حيناً وبالانكليزية احياناً اخرى ، ولم يكن كلامهما يدور حول أي موضوع حقيقي عدا إدراكك بأنه كان غارقاً في هواها ، ولعل الفتاة كانت سعيدة لاهتمامه بها ، أو لعلها كانت برمة به ، أو مضطرة لمجاراته بأدب ، أو مستمتعة بكل ذلك مع انه ليس بمقدور فتاة صغيرة أن تستمتع بحب رجل عجوز دنف ، غير أنها لم تكن تحبه بالتأكيد . لقد كانت جد حلوة ومؤدبة فلم تظهر ابداً مشاعرها الداخلية لكي لاتؤذيه .

هكذا أُحب ان اتذكر بابا .

عبر النهر Across The River

عندما أقعد المرض بابا في خريف ١٩٦٠ ، وهو في « صن ڤالي » لم يعلم أحد بذلك ، باستثناء ماري والطبيب المعالج وبعض من أصدقائه المحليين ، وكان قد كتب لي من « مايوكلنك » ليطلعني بأنه يعاني من الـ « هيماكروماتوسز »[٤٤] وهو نوع من داء السكري النادر والقتال أيضاً ، ولست أدري كيف تأتى له أن يكتشف حقيقة إصابته بذلك المرض ، ولكنه كان ذكياً جداً في مثل تلك الامور ، ولعله تصور انني ـ باعتباري طالب طب ـ بحاجة الى تفسير أكثر تعقيداً عن سبب رقوده في المستشفى من الرواية الرسمية المنشورة حول كونه يعالج من ارتفاع ضغط الدم .

ولقد حصل هناك أمر سيىء واضح تماماً وهو ان اطباء « مايوكلنك » قد أخطأوا عندما سمحوا له بمغادرة المستشفى في حينها ، ولقد ناضلت ماري كالنمرة ضد خروجه من المستشفى ، وطلبت تحويلاً الى بيت وسيط للعلاج في « معهد لڤنك » بمدينة « هتفورد » في ولاية « كونيكتكت » حيث يعالج المرضى الذين يشكون من اختلال نفسي .

ولكن أطباء « ماير » ـ وهم الافضل والأذكى ـ لم يرضوا بذلك ، وما قيمة هاجس امرأة ازاء قناعة كل اولئك الأطباء الافذاذ ؟

ولكنهم كانوا مخطئين ، وهم أول من يعترف بذلك ، ففي كافة المستشفيات التي تدربت فيها ـ وبعضها جميل فعلاً ـ فان النسيج الدماغي المنتشر حول الجدران بعد مضي اسبوع واحد على مغادرة المريض المستشفى لايشكل نصراً علاجياً .

ولست أظن ان بابا كان سيطلعني على حقيقة مرضه العقلي . ربما كان سيصارحني لو ألم به مرض عضوي ، اما وقد اصيب بمرض عقلي ، فلا ، لا أبداً . لقد كان بابا اكثر من مجرد اب بالنسبة لي . كان مثالي الأعلى ، ومثالاً يحتذى لجيل كامل من الشباب . واعتقد انه لو صرح لهم بالحقيقة فانه سرعان ماكان سيخيب آمال أبنائه الذين كان يحب تعليمهم ، وامضى كل عمره في ذلك . لقد كان يعلم انه سيخيب آمالهم لو انه اصيب بالجنون . لقد قالوا ان اخفاءه لتلك الحقيقة له صلة بحبه لذاته او « انانيته » ، ولكنني اتصور انه يستحق كلمة أنبل من هذه . لقد كان عمله « الخياني » هذا نابعاً من الحب بقدر ارتباطه بالاعتداد بالنفس . لنتذكر الاتصال الهاتفي للمرة قبل الاخيرة معه في نيسان ١٩٦١ ، والذي أجريته عندما توقفت

---

(٤٤) داء التلوث الدموي الناجم عن مضاعفات داء السكري .

ارساليات النقود الى مدرستي ، حيث لم تردهم اجور الدراسة لشهرين متتاليين ، فاتصلت هاتفياً بمايوكلنك وطلبت حديثاً شخصياً معه ، ولكن محدثي كان طبيباً لم يهتم حتى بذكر اسمه . ولن انسىٰ ماحييت قوله لي بصوت لاعاطفة فيه ـ من النوع الذي لايمتلكه الا اعظم الاطباء :

ـ « ولعل والدك لايتذكر استلامه لرسالتك » .

ـ « ماالذي تعنيه بانه « لايتذكر » رسائلي ؟ ان لوالدي احدى اعظم قوى الذاكرة في العالم » .

لاجواب من الطبيب .

ـ « ماالذي تعنيه بقولك انه لايتذكر ؟ » قلت صائحاً .

ـ « أعني ماقلته بالضبط . ربما كان لايتذكر استلامه لرسائلك » ـ وكانت نبرته قد اصبحت عدائية الآن .

ـ « ماهو اختصاصك ؟ » .

ـ « انني طبيب نفساني . » .

ـ « هل تجري معالجة بابا من مرض عقلي ؟ » .

ـ « آسف ، فليس بوسعي كشف طبيعة مرض والدك » واظهر صوته للمرة الاولى نوعاً من الاحساس الآدمي ـ « ولكنني سأرىٰ إن كنت أستطيع عمل شيء كي تستلم النقود المرسلة اليك » .

ـ « شكراً » .

ـ « اهلاً وسهلاً ، مع السلامة » .

طرت الى « صن ڤالي » لحضور تشييع جنازته ، وجلست « مارسلين » شقيقة والدي الكبرىٰ الى جانبي في الطائرة الصغيرة التي أقلتنا في رحلتنا الاخيرة . لم نتحدث كثيراً ، وهو ماكان مصدر راحة بالنسبة لي لأن مارسلين كانت منهمكة بأخذملاحظات عن سلوك الآخرين في الطائرة ، والتي ربما ستكون مفيدة لها في كتابها عن ايرنست . كانت نظراتها وقورة ، بل وحتى ملائكية كما لو كانت تعتقد انه سيكون شيئاً عظيماً .

استقبلتنا ماري في دارة والدي « حصن همنغواي » كما عمدته أنا حالاً . كان بابا قد ابتاعه خلال فترة مرضه الاولى ، ولكنه كان يبدو نذير شؤم له . كان ذلك الحصن قد شيد بعيداً عن الشارع بالاسمنت المراكم كي يبقى شامخاً لمائتي سنة بوجه العالم وكأنه مأوى اكتشفه

مخبول . لم يكن ينقصه سوى تجهيز ممراته الضيقة بمصائد المغفلين وكهربة سياجه كي يصبح أميناً مثل « قلعة تروتسكي » في المكسيك .

ولقد عانت ماري من جحيم حقيقي خلال اليومين الأخيرين اللذين تلا اكتشاف جثة بابا . ولكنها استقبلتنا بحب على الرغم من طول المدة التي ابتعدنا خلالها عن بابا ، وشعورها بأننا قد هجرناه وتركناها لوحدها حامية له . ولقد ذهبت بنفسها الى المدينة كي تؤمن لنا مكاناً للمبيت عند صديقاتها هناك . ان الشجاعة والرفعة التي ابدتها وقتذاك كانت من النوع الذي لاتظهره الا امرأة نبيلة من طراز « السيدة كندي » وهي تسير في « جادة بنسلفانيا » العريضة في يوم دق الطبول ذاك .

كان اليوم الذي سبق تشييع الجنازة غريباً ، فقد وردت المئات من برقيات التعازي من مختلف ارجاء العالم ، غير ان نفراً قليلاً من الناس أبدى حزناً حقيقياً على وفاة بابا ، ولم يكن قد بقي سوى عدد قليل من الأصدقاء الحقيقيين الذين عرفوا بابا لمدة طويلة مثل « چارلز سويني » ذلك العقيد الفرنسي الاسطوري الذي خدم في « الكتيبة الفرنسية الاجنبية » وخاض سبع حروب ، وكان احد الرجال المعدودين الذين يقال عنهم بحق أنهم لايهابون أي شخص . كان ذلك الرجل الماجد قليل السمع وهو في عامه الثمانين ، ولقد أعطاني بعض وقته في البار ، عندما ناقش السياسة الخارجية بصوت عالٍ متهماً « آيزنهاور » بالغباء وعدم الكفاءة ، وواصفاً الجنرال « ماك آرثر »[٤٥] كرجل مصاب بجنون العظمة ، ولقد توجه نحونا بعض الناس الخشنين قبل ان نستطيع إخراجه من ذلك المكان .

وكان هناك « چارلز تومسن » العزيز الحساس الذي رافق بابا في الصيد خلال الثلاثينات ، والذي كرس له بابا روايته « تلال افريقيا الخضراء » ، وكذلك بالطبع سكان هاڤانا ، وكي وست ، وصن ڤالي ، اولئك الذين كانوا يتمتعون ببلوغهم حدود العظمة لأنهم كانوا يعلمون بأن ذلك أبعد ما بامكانهم الوصول اليه . لقد كانوا مجموعة غريبة ذكرتني بالصورة المشهورة لجثمان مصارع الثيران « جوزليتو » وهو يرقد في مقبرته بمدريد يحيط به زهاء ثلاثون رجلاً من اصدقائه وكلهم ـ باستثناء شخصين اثنين ـ مهتم بالظهور في مقدمة الصورة اكثر من اهتمامه بموت صديقه .

وكان شقيقي پات قد طار الى كوبا من افريقيا ، فالتقينا مع جاك للمرة الاولى منذ

---

(٤٥) « دوكلاس ماك آرثر » (١٨٨٠ ـ ١٩٦٤) جنرال امريكي قاد الحرب في المحيط الهادي واليابان خلال الحرب العالمية الثانية .

الاربعينات ، عندما امضينا جميعاً صيفاً رائعاً في الصيد في « آيداهو » و « وايومنك » و « مونتانا » وعلى الرغم من غلبة الوقار علينا نحن الثلاثة في بادىء الأمر ، لكننا سرعان ماوجدنا أنفسنا نضحك وننكت معاً مثلما كنا نفعل في الايام الخوالي . ولقد أحسست بخجل خفي ، وشعرت بأن الواجب كان يفرض علينا انّ نقضي معظم الوقت نفكر في بابا ونستعيد معاً ذكريات الاوقات السعيدة الرائعة التي أمضيناها معه ولكن ما كان بالامكان لجم اي فرد منا وهو يتحدث عن خططه المستقبلية باسهاب مثير ، وقد كان عندي شعور مقيت بأنني سأصبح طبيباً .

والشيء غير الاعتيادي الآخر الذي حصل هناك قبل دفن جثمان والدي كان من نوع آخر . كنت أسكن مع « كلارا شبيكل » وهي صديقة قديمة لبابا ، وقد سمحت لي متكرمة باستخدام سيارتها الصالون عندما كنت في المدينة ، وبينما كنت أسوق في « كيتشوم » متوجهاً الى « صن ڤالي » ، رأيت فتاة شابة طويلة ترتدي « بلوجينز » تسير على قارعة الطريق ، فعرضت عليها الركوب ، ودهشت عندما لم ترفض الدعوة . لقد كانت فتاة ايرلندية تمتلك تلك البشرة الرائعة والعيون السنجابية التي تتغاير الوانها وأنت تراقبها والتي يشتهر بها الايرلنديون .

كان اسمها « فاليري دانبي ـ سمث » وكانت قد اشتغلت سكرتيرة عند بابا فترة عام حتى قبل وفاته بعشرة شهور ، وكانت تعمل في ذلك الحين باحثة في « نيوزويك » ولم تأت الى كوبا بتكليف رسمي ، مع ان السفرة الى « صن ڤالي » كانت مكلفة عليها ، ولكنها قالت بأنها تشعر بأن الواجب يحتم عليها المشاركة في تشييع جثمان والدي ، ولقد أحببتها منذ البداية وتزوجنا عام ١٩٦٦ .

واخيراً فقد أزف الوقت لما كنا جميعاً قد قدمنا لاجله ، وأعترف أنني شعرت بارتياح عميق عندما ووري جثمان أبي الثرىٰ ، وأدركت انه قد توفي فعلاً ، وانني ليس بمقدوري من الآن فصاعداً أن اسبب له الألم أو الخيبة .

لقد اختار النهاية بمحض ارادته تقريباً ، وكنا نقيم له جنازاً شبه مسيحي متجاوزين بعض الطقوس مثلما يتطلب الامر بالنسبة لاولئك الذين امتلكوا الخيار الأخير[٤٦] ، فبوسع الجنون ان يكون أحياناً أرعب من الموت نفسه . لقد كان بابا لايخاف الموت مطلقاً ، وقد احترمت قراره الاخير .

---

(٤٦) لاتقام كافة الطقوس الجنائزية المسيحية للذين يموتون انتحاراً .

وكان ذهن القس شارداً في مكان آخر بعـد ان طُلب اليه تـلاوة ذلك الطقس من سفر « الجامعة » الذي كان بابا يعتقد انه يضع الرجال في مكانهم الصحيح :

« يأتي جيل ويذهب جيل ولكن الأرض باقية الى الابد » غير ان القس توقف قبل اختتام تلاوته بعبارة « وستشرق الشمس أيضاً ... »[٤٧] .

ثم فكرت : هاقد حل السلام أخيراً ، ولكن بحق الله ، كنت أدرك ايضاً ان لاسلام هناك بعد الموت . آه لو كان الأمر مختلفاً ، إذ ان أحداً لم يكن يحلم ويتطلع مثله الى السلام ، كما لم ينل أحد السلام بدرجة أقل منه . لقد بقي يكتب عن ذلك التطلع طوال حياته بكلمات سهلة ممتنعة تشبه الخريف والربيع .

آه لو كان بمقدوره ان يحلم في مكان ما ، فقد كان يعشق الاحلام ، ويتوق للتوحد مع الارض والبحر والسماء ، وهاهو قد أصبح جزءاً منها على الأقل .

ـ « ليس بمقدور الذرات أن تحلم ياگگ ، هكذا أسمعه يرد على افكاري ، « لاجدوى في خداعك لنفسك أيها الولد العجوز » .

ولم أجد أي عزاء في التفكير بترديـد « الكلائش » بهـذه المناسبـة ، وبضمنها هـذا السؤال :

كم ينبغي على العالم ان ينتظر لمشاهدة شخص عظيم آخر مثله مرة اخرى ؟ اواه ، لن يكتب لي أن اشاهده مرة اخرى ابداً .

---

(٤٧) وهي عنوان اولى روايات ايرنست همنغواي !

الفهرست

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ١٩٨٩

الغلاف رياض عبد الكريم

الثمن: دينار ونصف

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة